A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A. U. B. LIBRARY

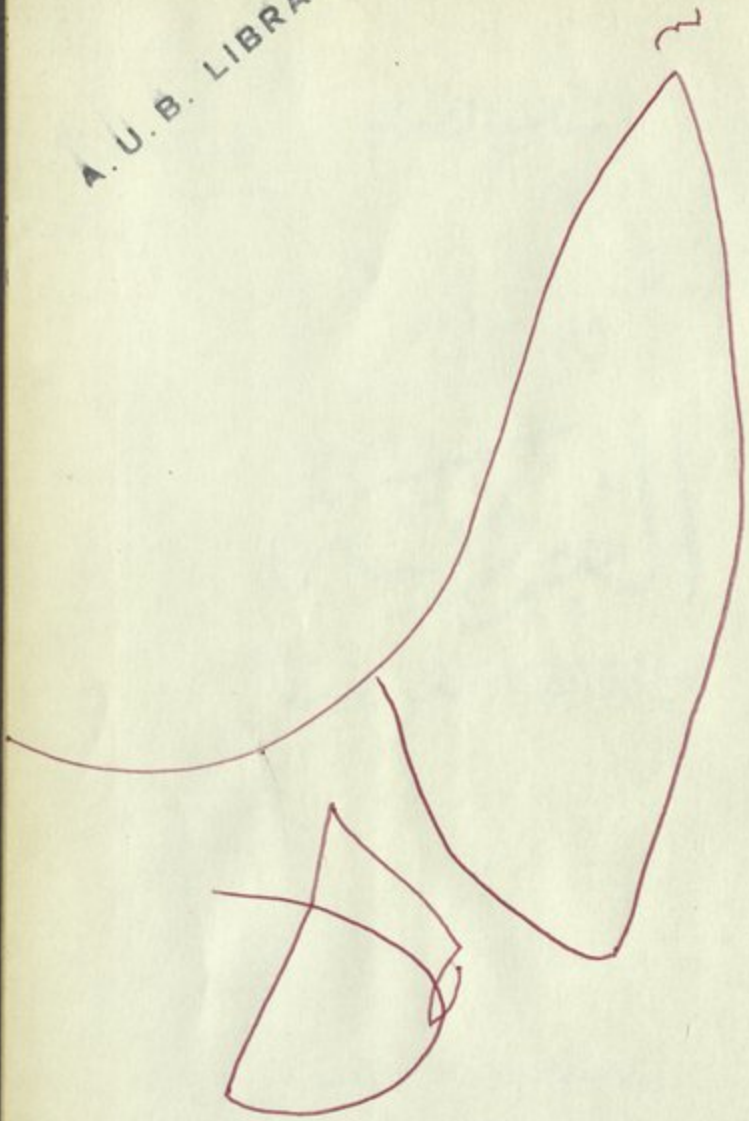

إلى صديق الدار
الدكتور نقولا زيادة
مع تحيات
ساطع الحصري
دار العلم للملايين

320.15
H97uA
c.1

العروبة

بين دعاتها ومعارضيها

دار العلم للملايين - بيروت
١٩٥٢

من مؤلفات

الاستاذ ساطع الحصري

•

(أ) — الكتب التي تتناول موضوع القومية والوطنية مباشرة :

آراء وأحاديث في الوطنية والقومية . . . القاهرة ١٩٤٤

محاضرات في نشوء الفكرة القومية . . . القاهرة ١٩٥١

آراء وأحاديث في القومية العربية . . . القاهرة ١٩٥١

(ب) — الكتب التي تتناول بعض المواضيع المتصلة بقضايا القومية :

يوم ميسلون . . . بيروت ١٩٤٧

صفحات من الماضي القريب . . . بيروت ١٩٤٨

آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع . . . القاهرة ١٩٥١

آراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة القاهرة ١٩٥١

الطبعة الاولى

بيروت ، كانون الثاني ١٩٥٢

مقدمة الناشر

•

أثارت أحداث المملكة الاردنية ، صيف هـــذا العام ، اهتمام الساسة والمثقفين في مختلف الاقطار العربية ، بقضية اتحاد الاردن والعراق بوجه خاص ، واتحاد البلاد العربية بوجه عام .

وتبارت الصحف البيروتية في نشر الآراء والمقالات حول هذه القضايا ، وفي بعضها تحبيذ لفكرة الاتحاد ، وفي بعضها الآخر شجب لها واعتراض عليها .

وكانت أشد الصحف اندفاعاً في الدعوة الى الاتحاد جريـــدة « الحياة » في حين كانت اشدها استرسالاً في نقدها جريدة «العمل».

والواقع أن « الحياة » نشرت ، في جملة ما نشرت من المقالات ، فصلاً مستخرجاً من كتاب للعلاّمة الكبير الاستاذ ساطع الحصري كشف فيه عن أسباب قيام الدول العربية في اوضاعها الحالية . حتى إذا أثار هذا الفصل بعض الردود في الصحف المعارضة لفكرة الاتحاد ، نشر الاستاذ الحصري بحثين مستفيضين في « الحياة » كان لهما دويّ عظيم في اوساط المفكرين .

وقد طلب الينا غير واحد من اصدقاء الدار أن نتولى نشر البحثين المذكورين في كرّاسة او كتيّب ، لتعمّ فائدتها سائر

الاقطار العربية ، وهكذا رغبنا الى الاستاذ الحصري في الموافقة على ذلك .

ولم يبخل علينا الاستاذ بالموافقة . ودفع الينـــا ، فضلاً عن ذلك ، مسوّدات الردود التي كان قد كتبها في نقد مقالات «العمل» الجديدة ، والتي لم يستطع ان ينشرها في حينها لظروف خاصة . كما قدّم الينا مجموعة من الابحاث كان قد كتبها في نقد آراء الأستاذ انطون سعادة العلمية والسياسية . ليس هذا فحسب . بل لقد رأى المؤلف أن يضيف الى هذا كله ذيلاً يوضح موقف الاحزاب السياسية ، في كلّ من سورية والعراق ولبنان ، من فكرة القومية العربية .

وأنه ليسرّ دار العلم للملايين ان تقدّم اليوم الى قرائها هـذا السفر النفيس وكلها ثقة بأنه سيسدّ فراغاً كبيراً طالمـــا شكا منه الباحثون في القضايا القومية .

دار العلم للملايين

الأمـــة العربية والدول العربية

بين الخيالية والواقعية

•

ان اهم ما لفت نظري في كتابات المعارضين لفكرة الاتحاد ، هو استرسالهم في نعت الفكرة بالخيالية ، واسرافهم في الدعوة الى الواقعية .

انهم يقولون على الدوام ، ضمناً او صراحة : « هذا وهم . هذا خيال محال . يجب ان نقلع عن السير وراء الخياليات . يجب ان نكون واقعيين ... »

وانا اود ، قبل كل شيء ، ان اسأل هؤلاء المعارضين : ماذا يفهمون من الخيالية ؟ وماذا يقصدون من الواقعية ؟

لا شك في ان تمييز « الخيال » عن « الواقع » امر لا يحتاج الى بحث ونقاش ، ولكن التمييز بين ما يسمى « الخيالية » وبين ما يسمى « الواقعية » ، يحتاج الى بحث جدي وتأمل عميق . ذلك لانه اذا كان هناك خيالات محضة ، غير قابلة للتحقيق .. فان هناك خيالات خلاقة تسير قدماً نحو التحقيق . .

ويجب ان لا ننسى ان كثيراً من « واقعيات » اليوم ، كانت من « خياليات » الامس . ويجب ان لا نشك في ان كثيراً من

« خياليات اليوم »، قد تصبح من « الواقعيات » ، في الغدالقريب او البعيد . .

وانا اقول بدون تردد : انه ما من اصلاح تم ،وتقدّم حصل، وما من نهضة قامت ، ورسالة انتشرت . . الا وقـــد بدأت على شكل « مشروع » تخيلته بعض الاذهان ، او « امل » جاش في بعض الصدور ، او مثل اعلى صبت الى تحقيقه بعض النفوس .

ولو كان الناس كلهم واقعيين ، — بالمعنى الذي يقصده دعـاة الواقعية في امر اتحاد البلاد العربية — مـــا كان تيسر للبشرية اي تقدم كان ، في اية ساحة من سوح الحياة السياسية والاجتماعية .

كل حركة تقدمية ، انما تبدأ بالخروج على الامر الواقع . وكل نهضة قومية ، انما تنشأ من العصيان على الوضع الراهن .

ولهذا السبب ، انا احذر المفكرين والكتاب من الاسراف في الحكم على الآراء بالخيالية ، ومن الاسترسال في الدعـــوة الى الواقعية ، فان صفحات التاريخ مليئة بحوادث ووقائع تبرهن على ان اكبر المفكرين واشهر الساسة لم يسلموا من الوقوع في اخطاء فاحشة ، في امثال هذه الاحكام :

ان كثيرين مـــن رجال القلم والسياسة ، زعموا ان « فكرة الوحدة الالمانية » من الاوهام التي لا يمكن ان ترى الوجـود الا في مخيلة بعض الساسة ، واحلام بعض الشعراء .

ان زعماء حركة « السين فاين » الايرلاندية ، كانوا يُتهمون — بوجه عام — بالخيالية ، وبالبعد عن الواقعيـة ، في النضال الذي شنوه على حكم الامبراطورية البريطانية الجبارة .

وعندما قام مصطفى كمال ، لتخليص تركيا من كوارث التمزيق والاحتلال ، عارضه السلطان وحيد الدين – ومن التف حوله من الساسة المرجفين – باسم « الواقعية » ، زاعمين أن الخروج على مقررات الدول المعظمة الظافرة ، انما هو ضرب من الانتحار.

وانا لا أزال أذكر الآن ، الحديث الذي سمعته – قبل نحو ثماني سنوات – في احد صالونات اوتيل سان جورج في بيروت ، بين اثنين من رجال السياسة السورية ، اذ قال احدهم للآخر – بتهكم شديد – الا تزالون تمشون وراء الخيال ، فتشتغلون للاستقلال والمستقلال ؟...

اني استطيع ان أطيل هذه السلسلة من الوقائع البليغة، كثيراً وكثيراً جداً . ولكني اعتقد ان هذه الامثلة وحدها تكفي للبرهنة على ان الذين كانوا يسيرون وراء ما اعتبره البعض ضرباً من « الوهم والخيال » انما كانوا اكثر فهماً لحقائق الامور ، من معارضيهم الواقعيين .

ولا اتردد في القول بأن ثمة خيالا هو اشد حيوية من الواقع . لان « الواقع الحالي » كثيراً ما يمثل « الماضي البالي » ، في حين ان « الخيال الحالي » قد يحمل في احشائه « الاستقبال الحقيقي » ..

وانا اعتقد ان فكرة العروبة والاتحاد العربي انما هي من احسن الامثلة على هذا النوع من « الخيال » .

قصص ميلاد الدول العربية

•

لقد لاحظت ان بعض الجرائد حملت حملات شعواء على راي القائلين بان قيام دول عديدة في مختلف الاقطار العربية ، بعد الحرب العالمية الاولى ، انما نشأ عن مطامع الدول المستعمرة واتفاقاتها .

وقد زعمت الجرائد المذكورة :

اولا – ان سبب قيام هذه الدول هو الاختلاف الموجود بين طبائع اهاليها .

وثانياً – ان الدول المذكورة ليست الا امتداداً لكيانات قائمة من قديم الزمان .

فرأيت ان أناقش كل واحد من هذين الزعمين على حدة :

هل يوجد حقيقة بين الاقطار العربية المختلفة ، اختلاف جوهري في الطبائع ، يجعل من الضروري ان تقوم في كل واحد منها دولة مستقلة عن غيرها ؟

هل يوجد – مثلاً – بين القطر السوري والقطر العراقي ، من الاختلاف ما يحتم على كل واحد منهما ، ان يكون دولة خاصة به؟

اني لا اتردد في الاجابة على هذا السؤال بالنفي البات :

لقد قدر لي ان اعيش وان اعمل في كل واحد من هذين القطرين حقبة طويلة من الزمن ، وان اطلع على احوالها الطبيعية والبشرية اطلاعاً واسعاً . وقد تجولت – خلال مدة تقرب من ثلث القرن – في أنحاء كلّ منهما جميعاً ، من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ، من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ، من اكبر المدن الى اصغر القرى ، من اخصب الاراضي الى اقفر البوادي . وقد تنقلت مراراً في مختلف انحاء القطرين المذكورين ، ليس تنقل السائح العابر ، بل تنقل الباحث العامل ، فأستطيع ان اؤكد – استناداً الى ما لاحظته خلال هذه المدة الطويلة – انني لم اجد بين احوال القطرين اختلافاً يفوق الاختلافات التي تشاهد عادة بين مختلف المناطق ، في كثير من الدول الاوربية نفسها .

لا شك في ان بغداد تختلف عن دمشق في كثير من الامور ، ولكن هل يوجد في العالم مدينة لا تختلف عن غيرها في غير قليل من الامور ؟ ثم ، اذا كان ثمة اختلاف بين بغداد وبين دمشق ، أفلا يوجد اختلاف مماثل لذلك ، بل واشد من ذلك ، بين بغداد وبين المنتفك في العراق من ناحية ، وبين دمشق وبين دير الزور في سوريا من ناحية اخرى ؟

ومما لا شك فيه ابداً ، ان الموصل مثلاً كانت – قبل ثلاثين عاماً – اكثر اتصالاً بحلب منها ببغداد ، واشد شبهاً بها .

واني لا ازال اذكر الانطباع الذي حصل في نفسي عند زيارتي الاولى الى الديوانية في العراق ، قبل نحو ثلاثين عاماً : لقد توهمت

أنني لم اغادر حوران !

كما اني لا ازال اذكر الانطباع الذي حصل في نفسي ، عندما زرت دير الزور ، قبل سبعة اعوام : لقد ظننت أنني عدت الى العراق !

ولذلك كله ، اقول جازماً : بان الفروق التي تذكر بين القطرين العراقي والسوري ، ليست من الفروق الجوهرية ، وهي لا تفوق كثيراً الفروق التي تشاهد بين مختلف الايالات الفرنسية — مثلاً .

ولا اغالي اذا قلت : انها تقلّ كثيراً عن الفروق القائمة بين ايالتي كالابريا ، ولومبارديا في ايطاليا .

هذا ، ويجدر بي ان اشير في هذا المقام ، الى الحقيقة التالية ايضاً :

ان كثيراً من الفروق التي تشاهد الان بين احوال سوريا وبين احوال العراق ، انما نتجت عن اختلاف نظم الحكم والادارة والاقتصاد والثقافة ، التي قامت في كل منهما ، منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى . وهي فروق سطحية وعارضية ، تتضاءل وتتلاشى بسرعة امام التماثل الاساسي الذي لا يزال قائماً بينهما .

فلا يمكن ، والحالة هذه ، تعليل وتفسير نشوء هذه الدول العربية المختلفة ، بغير الرجوع الى مطامع الدول الاوروبية ، واتفاقاتها السياسية ، ومحاولاتها الاستعمارية .

*

ان هذه الحقيقة تتجلى بوضوح اكبر — بل تصل الى حد البداهة — في امر نشوء المملكة الاردنية .

لماذا و كيف تكوّنت المملكة الاردنية، في هذه الرقعة الصغيرة من البلاد العربية ؟

انها كانت « متصرفية الكرك » في عهد السلطنة العثمانية ، ثم صارت « متصرفية السلط » في عهد الدولة العربية الاولى في سوريا.

واني ، بوصفي من المساهمين في تأسيس الدولة المشار اليها ، ومن المشتركين في تقرير كثير من الامور المتعلقة بالمتصرفية المذكورة نفسها ، اؤكد كل التأكيد انه ما كان يخطر ببال احد منا ، ولا ببال احد من ساسة الدنيا كلها في ذلك التاريخ ، ان هذه المتصرفية ستصبح امارة ، ثم مملكة ، في يوم من الايام .

واني اتحدى جميع معارضي فكرة الاتحاد ، ان يذكروا لي مثالاً واحداً ، يدل على ان استقلال هذه الرقعة من الارض بكيان سياسي خاص ، كان موضوعاً لطلب، او مشروع ، او اقتراح، او تنبؤ ... قبل سنة ١٩٢٠ .

ان تاريخ المسألة الشرقية بوجه عام ، وتاريخ مؤتمر فرساي بوجه خاص ، حافل بمشاريع كثيرة، تحوم حول احياء بعض الدول القديمة ، او احداث بعض الدول الجديدة .

لقد جمع احد ساسة الغرب تاريخ هذه المشاريع في كتاب قيم، عنونه بعنوان « مائة مشروع ، لتقسيم تركيا » .

وقد تلقى مؤتمر الصلح الذي انعقد في فرساي ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى ، عرائض ومطالب كثيرة من مختلف الوفود الشعبية ، واقتراحات عديدة من مختلف الهيئات السياسية ، ووجد نفسه امام كمية هائلة من المطالب والمشاريع الرامية الى

تغيير الخرائط السياسية ، من احياء دولة يونتوس الى احداث دولة آشور .

ان كل من يستعرض صفحات تاريخ مؤتمر الصلح ، الحافل بشتى المطاليب والمشاريع ، لا يجد فيها اي اثر لطلب او اقتراح يتصل – من قريب او بعيد – باحداث دولة وراء الاردن .

كيف ، ولماذا اذن ، تكونت هذه الدولة في هذه البقعة من البلاد العربية ؟

لا يمكن لاي باحث كان – بعد ملاحظة الحقائق التي سردتها آنفاً – ان لا يسلم بان السبب الاصلي في ذلك ، يعود – على وجه الانحصار – الى السياسة التي اتخذتها بريطانيا لنفسها ، بعد تعديل اتفاقاتها مع فرنسا .

ومعلوم لدى الجميع ،ان المفاوضات التي جرت بين فرنسا وبين انكلترة لتعديل اتفاق سايكس بيكو انتهت الى :

موافقة فرنسا على عدم المطالبة بالموصل من ناحية ، وعلى ادخال فلسطين تحت الانتداب البريطاني من ناحية اخرى .

وموافقة انكلترة على منح فرنسا حصة من بترول الموصل من ناحية ، وعدم مطالبتها بمراعاة استقلال سوريا الداخلية من ناحية اخرى .

وكان من جملة الامور التي تم الاتفاق عليها بين الطرفين – خلال هذه المفاوضات والمساومات – ان يكون الحد الفاصل بين منطقتي نفوذهما ، خطاً يمر من جنوب درعا .

ولهذه الاسباب كلها ، عندما استولت فرنسا على سوريا ،

توقفت في درعا ، ولم تتغلغل في جنوبها ، تاركة حق التصرف في شؤون ذلك القسم من الدولة السورية المنقرضة ، لبريطانيا العظمى .

عندئذ ، وجدت انكلترة نفسها امام حلين لا ثالث لهما في تلك الظروف ، لمعالجة الموقف الجديد : اما الحاق تلك المنطقة بفلسطين ، او جعلها امارة منفصلة عن سوريا وعن فلسطين في وقت واحد .

ولكن انكلترة كانت مرتبطة في فلسطين بوعد بلفور المشهور نحو الصهيونية. فلم تشأ ان توسع حدود الوعد المذكور، ورجحت لذلك، ان تجعل اراضي المتصرفية المذكورة وحدة سياسية، منفصلة عن فلسطين ، ولو كانت تابعة للمندوب السامي المقيم فيها .

انها رأت في الوقت نفسه ، ان المنطقة المذكورة صالحة لان تكون قاعدة استراتيجية ، تستطيع ان ترسخ حكمها فيها دون ان تخشى مشاكل دولية ، او مطالب شعبية .

هذا هو السبب الاصلي ، الذي كوّن الامارة الاردنية فالمملكة الاردنية .

وهنا قد يسألني سائل : ولماذا لم تفكر انكلترة عندئذ في حل ثالث وهو ربط الاردن بالعراق ؟

ولكني اعتقد ان جواب هذا السؤال يرتسم من تلقاء نفسه ، عند تذكّر الاحوال السائدة في ذلك التاريخ :

اولاً : ان طريق الصحراء ما كان معلوماً ومفتوحاً بعد : فان الاتصال بين الاردن وبين العراق ، ما كان يمكن ان يتم في ذلك الزمان ، الا على ظهور الجمال ، عبر بادية الشام .

ثانياً : ان العراق كان عندئذ في بدء ثورته على الحكم البريطاني. فما كان من مصلحة انكلترة ان تفكر في ضم بلاد تستطيع هي ان تحكم شعبها بكل سهولة ، الى بلاد يثور شعبها عليها تلك الثورة العنيفة .

هذه هي الاسباب التي ادت الى تكوين الدولة الاردنية : اسباب لا تمت بصلة ما الى مطاليب الشعب او خصائصه ، بل تحوم حول الاتفاقات الدولية – الفرنكو بريطانية – من ناحية ، وحول مصالح بريطانيا واتجاهات سياستها العامة من ناحية اخرى .

اسطورة الكيانات الواقعية

•

لقد سردت احدى الجرائد نظرية جديدة لتعليل تعدد الدول العربية هي ما نستطيع ان نسميه نظرية «الكيانات الواقعية» حسب تعبير الجريدة نفسها .

اولا ، سألت الجريدة « لماذا كانت بلاد العرب منقسمة الى ولايات وسناجق وامارات ؟ » .

وبعد ذلك ، كتبت في مقالتين مختلفتين — العبارات التالية :

« كان طبيعياً ان تتدرّج هذه الكيانات الواقعية في العالم العربي — التي كانت دائماً سناجق وامارات وولايات (اي وحدات مستقلة) وتتجلى في دول مستقلة ، تمكينا لها من ان تعمل لمصالحها . . »

« . . . الجوهر الذي تتميز به هذه الكيانات — الكيانات التي كانت امس ولايات وسناجق وامارات — لانها وحدات متمايزة متنوعة ، فصارت اليوم دولا مستقلة . »

يظهر من هذه العبارات — التي نقلتها بحروفها — ان الجريدة المذكورة خلطت خلطا غريبا بين الكيان المطلق وبين الكيان السياسي ، ولم تميز بين الوحدات الادارية والوحدات السياسية .

لا ريب في انّ لكل شيء كيانا : لكل قرية ، لكل واد ، لكل مدينة ، لكل مديرية ، لكل قائمقامية ، لكل شيء كيان . ولكنّ بين هذا النوع من الكيان وبين ما يسمى بالكيان السياسي بوناً شاسعاً جداً .

اذا كانت الولايات والسناجق كيانات واقعية ... واذا كان من الطبيعي ان تتدرج هذه الكيانات الواقعية الى دول مستقلة — كما تقول الجريدة — يجدر بنا ان نسألها : لماذا لم تتدرج جميعها الى الاستقلال ؟ ولماذا اندمج بعضها مع بعض في كيان سياسي واحد ؟

لماذا استقلت متصرفية الكرك — مثلا — ولم تستقل متصرفية دير الزور ، مع ان الاولى كانت تابعة لولاية الشام ، في حين ان الثانية كانت مستقلة عن الولايات ؟

ثم ، لماذا لم تستقل ولاية الموصل او ولاية حلب ؟ وفي الاخير لماذا لم تتحد ولاية الموصل مع ولاية حلب بل اتحدت مع ولاية بغداد ؟

ولماذا لم تكوّن متصرفية اللاذقية دولة مستقلة ، او لم تبق مرتبطة ببيروت ، كما كانت من قبل ؟

ولماذا تكونت محل ست ولايات ونحو عشرين سنجقا اربع دول فقط ، مع ان جميع تلك الولايات والسناجق كانت من جملة « الكيانات الواقعية » على رأي الجريدة ؟

ولماذا توزعت سناجق ولاية بيروت بين ثلاث دول — اي ثلاث وحدات سياسية ؟

ولماذا اتحد سنجقان من سناجق ولاية سورية القديمة ، مع ثلاثة سناجق من سناجق ولاية حلب وسنجق من سناجق ولاية

بيروت ، مع سنجق دير الزور ، لتكوين وحدة سياسية ؟

الم يكن كل ذلك ، دليلا قاطعاً على بطلان نظرية « الكيانات الواقعية » التي تحاول تعليل تعدد الدول العربية بتدرج السناجق والولايات نحو تكوين دول مستقلة ؟

الشواهد التاريخية

•

يحاول خصوم فكرة الوحدة والاتحاد ان يدعموا آراءهم بحجج تاريخية ، ويزعمون ان انقسام البلاد العربية الى دول عديدة ، عند انفصالها عن السلطنة العثمانية ، كان من الامور الطبيعية ، بدليل ان امبراطوريات اخرى ايضاً ولدت دولاً عديدة .

وقد جاء في احدى مقالات الجريدة البيروتية التي اخذت على عاتقها مهمة « محاربة فكرة الاتحاد » العبارات التالية :

« كم دولة انشقت من الامبراطورية النمساوية مثلاً ؟ نعرف مثل المانيا الذي يحبون دائماً الاستشهاد به والتحجج . ولكن المانيا شعب موحد عنصراً ، وتاريخاً ، وارادة ، ومصلحة » .

يظهر من ذلك ان الجريدة تود ان تستشهد بما حدث في النمسا ، وتنكر على دعاة الاتحاد الاستشهاد بما حدث في المانيا ، ولسان حالها يقول : « ان النمسا هي التي تعطينا المثال الذي ينطبق على احوال البلاد العربية ، لا المانيا ! »

فيجدر بنا ان ندرس كل واحد من هذين المثالين الـــذين تذكرهما الجريدة ، دراسة مستندة الى الحقائق التاريخيـة ، لنرى

مبلغ صحة الاحكام التي استخلصتها الجريدة منها .

مثـــال النمسا

من المعلوم ان اراضي الامبراطورية النمسوية توزعت – بعد الحرب العالمية الاولى – بين خمس دول ، ولكن يجب ان لا يغرب عن البال ، ان هذا التوزع انما تم – بوجه عام – على اساس اللغات التي يتكلم بها السكان : فقد انفصلت عن النمسا ، الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة عن لغتها ، واما الشعوب التي تتكلم بلغة واحدة ، فلم تنقسم الى دول عديدة ، بل اتحدت بعضها مع بعض ومع الشعوب المماثلة القاطنة خارج حدود الامبراطورية النمسوية ، فكل من دول بولاندا وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، تضم الآن بلاداً كانت نمسوية واخرى كانت غير نمسوية .

ونستطيع ان نقول لذلك : ان الامبراطورية النمسوية ، اذا اعطتنا ، من ناحية ، بعض الامثلة على الانفصال ، فانها تعطينا في الوقت نفسه ، امثلة عديدة اخرى على الاتحاد . كما انها تعلمنا ان الاتحاد او الانفصال بين هذه الشعوب ، انما تم حسب الوحدة او الاختلاف بين لغاتها .

ولاظهار هذه الحقيقة الى العيان بوضوح تام ، ارى ان اتوسع قليلاً في بيان كيفية تكوين دولة من الدول التي « انبثقت عن الامبراطورية النمسوية » حسب تعبير الجريدة نفسها :

كانت في النمسا ثلاثة شعوب تتكلم بلغة سلافية خاصة تعرف باسم « السلافية الجنوبية » . هذه الشعوب هي : البوشناق ، والكروات ،

والسلوفان . وكانت بلاد الكروات والسلوفان تؤلف ايالتين متمتعتين باستقلال داخلي واسع النطاق : كان لكل منهما مجلس تمثيلي خاص بهـــا ، يعرف باسم الـ « دييت » ، ويتمتع بسلطات تشريعية هامة .

ومع هذا ، نجد ان هذه الايالات الثلاث لم تؤلف – عنـــد انفصالها عن النمسا – ، ثلاث دول مستقلة بعضها عن بعض ، بل انها اتحدت فيما بينها من ناحية ، ومع مملكتين مستقلتين عن النمسا من ناحية اخرى. هاتان المملكتان، هما مملكة الصرب ومملكة الجبل الاسود . وتكونت بذلك دولة واحدة ، جمعت تحت راية واحدة سكان الايالات النمسوية الثلاث، مع سكان المملكتين المذكورتين.

وقد تم تكوين هذه الدولة الموحـــدة ، مع ان الايالات المذكورة كانت تتمتع باستقلال داخلي واسع النطاق ، ومع انـه كان على رأس كل واحدة من المملكتين المذكورتين اسرة مالكة قديمة ، اشتهرت احداها بكثرة الروابط التي تربطها بالاسر المالكة الاوروبية ، عن طريق القرابة او المصاهرة .

اتحدت هذه الوحدات الخمس ، وكونت دولة موحدة ، سميت في بادىء الامر باسم طويل ، يجمع اسماء الشعوب المكونة لهـا : الدولة الصربية الكرواتية السلوفانية. ولكنها ، بعد مدة، رجحت أن تختصر هذا الاسم وتستبدل به اسماً يدل على (اللغة الجامعة) بين هذه الشعوب . فسميت لذلـــك باسم الـ (يوغوسلافيا) بمعنى (السلافية الجنوبية) .

ولا شك في ان يوغوسلافيا التي تكونت في نفس الوقت الذي

انفصلت فيه الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، اذا اصبحت الآن من الدول القوية التي تحسب لها جميع الدول حسابها ، واذا استطاعت ان تقوم بدور خطير بين الكتلتين الغربية والشرقية ، فان الفضل في ذلك يعود – في الدرجة الاولى – الى انها دولة موحدة ، جمعت ابناء اللغة الواحدة ، ووجهت اعمالها واعمالهم نحو غاية واحدة .

ويظهر من كل ما تقدم ، ان تاريخ يوغوسلافيا يضع امام انظارنا حادثين متعاكسين ، حدثا في وقت واحد : حادث انفصال من ناحية ، وحادث اتحاد من ناحية اخرى : انفصال عن الايالات النمسوية التي يتكلم سكانها لغة غير اليوغوسلافية ، واتحاد بين الايالات والممالك – النمسوية وغير النمسوية – التي يتكلم سكانها اللغة المذكورة .

ويتبين من كل ذلك، بكل وضوح وجلاء: ان مثال « الدول المنبثقة عن الامبراطورية النمسوية » بعيد كل البعد عن تأييد رأي القائلين بان انقسام البلاد العربية الى دول عديدة – عقب انفصالها عن السلطنة العثمانية – كان من الامور الطبيعية .

فاني اقول بلا تردد : ان من يقصر النظر ، امام هذه الوقائع التاريخية والاجتماعية المفصلة ، على صفحاتها الانفصالية دون ان يلاحظ الصفحات الاتحادية التي ترافقها يبقى غافلاً عن حقائق التاريخ والاجتماع ، ويعرّض نفسه لاخطاء فادحة جداً ، في امر تقدير دلالة هذه الوقائع التاريخية ، بالنسبة الى العالم العربي الذي نعيش فيه الآن .

كما ان من لا يلاحظ الدور الخطر الذي قامت به اللغات في التاريخ الحديث لا يستطيع ان يفهم سير هذا التاريخ على وجهه الصحيح .

نعم ، كان من الامور الطبيعية ان تنبثق عن السلطنة العثمانية – في الادوار المختلفة من تاريخها الحديث – دول عديدة ، مثل اليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، والبانيا ... نظراً لاختلاف لغات سكانها – ولكن ما كان من الطبيعي ابداً ان تنبثق عنها دول عربية عديدة ، مثل العراق وسوريا والاردن ، مع وحدة لغاتها .

ولذلك اكرر في هذا المقام ، ما قلته سابقاً : ليس في استطاعة أي باحث كان ان يعلل نشأة الدول المذكورة ، دون ان يرجع الى اطماع الدول الاستعمارية ، واتفاقاتها السياسية .

مثال المانيا

واما مثال المانيا ، فهو ايضاً بعيد عن تأييد مزاعم الجريدة بعداً كبيراً : فلننعم النظر في الوقائع والحقائق قليلاً !

يقولون في سياق الرد على دعاة الاتحاد ، في استشهادهم بالوحدة الالمانية : « ولكن المانيا شعب موحد عنصراً وتاريخاً وارادة ومصلحة » .

ويجدر بنا ان نسألهم في هذا المقام : متى كان الشعب الالماني موحداً في التاريخ اكثر من الشعب العربي ؟

والادارة الموحدة التي يشيرون اليها ، متى تكونت ، ومتى ظهرت الى عالم الوجود ؟

والمصلحة الموحدة التي يذكرونها ، متى اصبحت من الامور المسلم بها ، في المانيا وفي خارج المانيا ؟

هل كان ذلك كله ، قبل سنة ١٨٧٠ ؟

يشهد التاريخ بأعلى صوته ان المانيا كانت منقسمة الى دول ودويلات كثيرة وكثيرة جداً ، وان هذه الدول والدويلات كانت متخالفة ، ومتنافسة ، ومتنابذة ، وكان عددها يزيد على الثلاثمائة حتى اواخر القرن الثاني عشر ، وكان يبلغ تسعاً وثلاثين ، سنة ١٨٧٠ .

وكان على رؤوس هذه الدول ، مئات من الاسر المالكة ، تتمتع بحقوق تاريخية من مراتب ودرجات مختلفة ، منذ القرون الوسطى .

وشعوب هذه الدول ايضاً كانت بعيدة عن الشعور بالوحدة القومية . هذا كان يعتبر نفسه بروسياً ، لا يفتخر بشيء غير البروسية وذلك يشعر بانه بافاري ، لا يسوغ له ان يقدم شيئاً على البافارية ، وهكذا ، كان هذا فرنكونيا ، وذلك ساكسونياً ، هذا هسّياً وذاك بومرانياً ، الى آخر ما هنالك من الاسماء والنعوت التي تدل على الدول والشعوب. وكان كل واحد من الالمان ، ينتسب الى دولة خاصة من هذه الدول الكثيرة ، والى وطن خاص من هذه الاوطان العديدة ، ولا يشعر بوجود وطن عام يعلو هذه الاوطان .

وكان رجال السياسة ، في هذه الدول المختلفة ، يقولون على الدوام بوجوب المحافظة على الاوضاع الراهنة ، وذلك تماماً ، كما

يفعل خصوم الاتحاد العربي الذين يعيشون بيننا الان !

وكانت المنافسات قائمة على قدم وساق ، بين مختلف الملوك والامراء ، بمقياس اوسع بكثير من التي قامت في البلاد العربية ، في السنين الاخيرة .

وكان « حفظ التوازن » بين بعض الاسر المالكة من اسمى غايات السياسة الواقعيين .

وخلاصة القول : ان وحدة الامة ، ووحدة الوطن ، بل كل ضروب الوحدة كانت بعيدة عن الاذهان وعن النفوس .

ووحدة المصلحة ايضاً ، كانت من الامور التي لا يدركها احد من رجال الحكم والسياسة ، ولا يسلم بها احد من الملوك والامراء في اوائل القرن التاسع عشر .

انها كانت تصطدم على الدوام بمقاومة اصحاب المصالح الاقليمية ومزاعمهم التقليدية ، ولم تستطع ان تتغلب على هذه المزاعم وتلك المقاومة الا بعد جهود شاقة ، بذلها جيل من القوميين ، في مختلف الاقطار الالمانية . جهود شاقة ، استمرت عدة عقود من السنين ، لاقناع رجال السياسة ورجال الاقتصاد ، شيئاً فشيئاً ، في مختلف الدول الالمانية .

واما وحدة الارادة ، فهي ايضاً كانت من الامور التي لا وجود لها في المانيا . انها لم تظهر الى عالم الوجود ، وتسيطر على النفوس الا بعد مناقشات عنيفة ، ومعارضات شديدة ، وتجارب مريرة .. استنفدت جهود الكثيرين من رجال الفكر والسياسة ، المؤمنين بوحدة الامة الالمانية – وعرضتهم الى شتى ضروب الانتقادات

والاتهامات ، من الاستسلام الى الاحلام ، والغفلة عن مصالح البلاد ، الى خيانة الاوطان .

ان كل من يدرس تاريخ الوحدة الالمانية بشيء من التفصيل ، يجد بين صحائفه كثيراً من المناقشات التي تشبه تمام الشبه المناقشات التي تجري في يومنا هذا ، في مختلف اقطار العالم العربي حول قضايا الاتحاد ، ويعثر على كثير من الحجج والبراهين التي تماثل تمام المماثلة الحجج والبراهين التي يتسلح بها خصوم هذا الاتحاد في هذه الايام .

واما الذين يدعون الان بان احوال العرب لا يمكن ان تقاس باحوال الالمان ، لان « المانيا شعب موحد تاريخاً ومصلحة وارادة » ... فانهم اذا برهنوا على شيء ، فانما يبرهنون على انهم لم يطلعوا على تاريخ وحدة المانيا اطلاعاً كافياً !

فخير لهم ان يكفوا عن محاولة استعمال امثال هذه الاسلحة التاريخية التي ترتدّ عليهم ، وتجرح آراءهم في الصميم .

فوائد ومضار

ان اغرب وابدع ما قرأته من المزاعم في المقالات التي نشرها خصوم « فكرة الاتحاد » هو : نظريتهم القائلة بفوائد التجزئة ومضار الاتحاد .

نعم ، انهم يقولون ذلك ، ليس في مقام الهزل والتهكم ، بل بكل جد ووقار . انهم يريدون ان يقنعوا قراءهم بان «التجزئة تفيد البلاد العربية فوائد كبرى ، واما الاتحاد او الوحدة ، فانها تضر العرب ابلغ الاضرار ».

واما برهانهم الاساسي على ذلك ، فيتلخص بما يلي :

ان الدول الصغيرة تضمن مصالح الشعوب وتساعد على تنمية امكانياتها ، اكثر من الدول الكبيرة . واما ما هو شائع في الاذهان من ان القوة بالوحدة او الاتحاد ، فيجب ان لا يؤخذ على علاته . لان المثل المذكور « لا يحدد مدى الوحدة ولا عدد المتوحدين » فأولى به « ان ينطبق على اصغر عدد واضيق مجال » .

وهم يريدون أن يقولوا بذلك : ان الاتحاد يكون قوة داخل كل دولة من الدول العربية على حدة . ولكنه لا يكون قوة ، اذا ما خرج خارج حدود هذه الدول ، وشمل اثنتين او اكثر منها.

انهم يكررون هذه النظرية في عدة مواضع من كتاباتهم

بعبارات صريحة :

« يسهل العمل ويعمق ، ويعطي النتائج المجدية ، كلما انحصر مجاله ، وضاق » .

انهم يقولون ذلك ، ولكنهم لا يسيرون مع مقتضيات قولهم هذا الى النهاية ، ولا يقولون لنا لماذا يتوقفون في هذا المضمار عند حدود الدول القائمة ، ولا يقترحون تجزئة هذه الدول ايضاً الى اجزاء اصغر فأصغر، ما داموا يزعمون أن النتائج تكون اجدى « كلما انحصر المجال وضاق » ؟

ومع هذا ، نحن نكتفي هنا ، بتسجيل قولهم بان الخير كل الخير للبلاد العربية ان تبقى منقسمة كما هي الآن ، لكي تنمي امكاناتها تنمية تامة ، وننتقل الى النظر في الدليل الواقعي الذي يذكرونه للبرهنة على صحة قولهم في هذا المضمار .

هذا الدليل ، في نظرهم ، هو المملكة الاردنية .

فيجدر بي أن انقل فيما يلي نص العبارات التي سردوا بها هذا الدليل الباهر ، بصراحة ما بعدها صراحة :

« هذه الاردن ، مثلاً ، استطاعت — لانها دولة مستقلة — ان تنشىء جيشاً ، ما كان ينشأ لو ان الاردن بقيت محافظة سورية ، او راحت تمد في مساحة العراق ، وتزيد في عدد سكانه » .

اعترف بانني كدت اشك في صحة بصري ، عندما قرأت هذه العبارات للمرة الاولى ...

انهم يعلنون اغتباطهم لبقاء الاردن مستقلاً عن سوريا وعن العراق ... لان هذا الانفصال والاستقلال ادى الى تكوين هذا

الجيش الذي يعرف باسم « الجيش العربي » ؟

ولكن ، هل فاتهم ان الجيش الذي يعنونه يعمل تحت امرة قواد وضباط من الانكليز ، ويعيش بالاعانة السنوية التي تتفضل بها بريطانيا العظمى على هذه الدولة الصغيرة ؟

وهل يظنون ان الاستقلال عن سائر البلاد العربية ، اهم واجدى من الاستقلال عن السيطرة البريطانية ؟.

وهل يعتقدون ان الاستغناء عن مساعدة سائر البلاد العربية أهمّ واكرم من الاستغناء عن الاعانة التي تقدمها دولة غير عربية ؟

اني اكتفي بتدوين هذه الاسئلة واترك اصحاب هذه النظرية يفكرون فيها ، ما وسعهم التفكير ، لكي يتثبتوا من قوة البرهان الذي طلعوا به علينا ، لاثبات نظريتهم البارعة .

*

ولكن خصوم الاتحاد العربي لا يكتفون بذكر فوائد التجزئة وتمجيد خيراتها ، بل انهم يسترسلون بعد ذلك ، في تعداد مضار الاتحاد ايضاً .

« ان الاتحاد يحول دون تنمية الامكانيات ... انه يؤخر الشعوب عن تحقيق مصالحها ... انه يؤدي الى افقار الجميع ..»

انهم يقولون ذلك بعبارات صريحة دون أن يروا لزوماً لتأييد مزاعمهم هذه ببراهين واقعية .

واما انا ، فسأتبرع باتمام ما تركوه ناقصاً في هذا المضمار ، وسأذكر سلسلة امور تتمشى مع منطق هذه المزاعم :

منها : ان مدينة روما ، انقطعت عن التقدم ، بعدما فقدت

الاستقلال الذي كانت تنعم به حتى سنة ١٨٧٠ فاندمجت في المملكة الايطالية. . .

ومنها : ان مدينة جنيف لم تستطع ان تنمي جميع امكانياتها بل تأخرت كثيراً في مضمار الرقي ، منذ انضمامها الى الاتحاد السويسري .

ومنها : ان مدينة هامبورغ انحطت الى دركة ميناء من موانيء الدرجة الثالثة بل الرابعة ، منذ تنازلت عن استقلالها ، وانضمت الى الاتحاد الالماني . . .

اني لا اريد ان اطيل هذه السلسلة ، واقول بلا تردد : ان ما يزعمه خصوم الاتحاد في هذا المضمار لا يصح الا اذا صحت الوقائع التي ذكرتها آنفاً .. بعد ان اختلقتها اختلاقاً ، مخالفاً بذلك ، كل الحقائق الراهنة مخالفة تامة .

*

ولكن جعبة خصوم الاتحاد مملوءة بسهام مسمومة اخرى ، يحاولون ان يصيبوا بها فكرة الوحدة والاتحاد في الصميم :

ان الاتحاد او الوحدة ، تضر البلاد العربية لانها :

أ — تؤدي الى توسيع نطاق الاقطاعيات .

ب — تساعد على ترسيخ اقدام الاستعمار .

ج — تسبب تفشي الشيوعية في البلاد .

واليكم البعض من الفقرات التي تسرد هذه المزاعم ، وتوضحها

بعبارات صريحة :

« المصلحة العليا تقضي بتوطيد الاوضاع الراهنة .

« ان الافادة الحقة للشعب – من حيث ترقية معيشته ، ورفع نفسية افراده ، وتدريب مؤهلاتهم ، وتوفير المقومات الطبيعية التي تحررهم – لا يتسنى شيء منها الا ضمن الاوضاع الدولية القائمة .

« ... ان الاتحاد (كل اتحاد) لن يكون له ومنه سوى نتيجة واقعية واحدة ، وهي ازدياد نفوذ عائلة (ايا كانت) في وجه عائلات ، وتكبير دولة على حساب دول .

« ونحن نرى ان ذاك الاتحاد ، وكل اتحاد ، سيكون له نتيجة واقعية اخرى ، وهي وحدها التي يجب ان يحسب حسابها : تؤخر الشعوب عن تحقيق مصالحها ، فضلاً عما تنتجه من فسحة لمصالح الاستعمار .. »

« .. ان مكافحة الشيوعية ، ليست ممكنة في الشرق الادنى ، الا اذا بقيت الاوضاع الدولية الراهنة . لان كل اتحاد او وحدة ، يؤدي حتماً الى بسط اقطاعية شديدة ، تكمن فيها المحاذير التي تستدعي الشيوعية وتوابع الشيوعية ... »

اني لم انقل هذه الفقرات ، لكي ارد عليها ، لاني اعتقد بانها في غنى عن كل رد وتعليق .

انما نقلتها ، ليرى القراء كيف يستميتون في الدفاع عن الاوضاع القائمة ، وكيف يتخبطون في التماس الوسائل التي قد تساعد على

إبعاد « خطر الاتحاد » عن جميع البلاد العربية .

انهم يلتمسون الحجج من كل حدب وصوب ، ولا يتورعون في آخر الامر عن الاستنجاد بـ «بعبع الشيوعية ايضاً ».

انهم ينتظرون من « حنكة السياسة البريطانية » – هذا هو تعبيرهم – ان تقدر هذه الحقيقة حق قدرها ، فلا تفتح باباً للشيوعية عن طريق فتح باب الاتحاد بين الاردن والعراق ! .

ردود على جريدة العمل

« لسان حال الكتائب اللبنانية »

نشرت جريدة العمل ست مقالات تحت عنوان « الوحدة العربية بيننا وبين فيلسوفها العلامة الحصري » (الاعداد الصادرة في ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ آب ، و٢ ايلول ١٩٥١) .

أبدت العمل في هذه المقالات عدة ملاحظات ونظريات لتفنيد آراء القائلين بالوحدة العربية ، ولكنها اقحمت بين هذه الملاحظات والنظريات كثيراً من الامور التي لا تمت الى أساس الموضوع بصلة حقيقية . كما انها انحرفت أحياناً عن « واجب الامانة » في نقل وعرض الآراء التي اقدمت على تفنيدها .

اني لن أحصي هنا على جريدة العمل ، كل ما جاء في مقالاتها من مآخذ وأخطاء . بل سأحصر بحثي بما هو أنفع من ذلك وأجدى : سأستعرض الآراء والنظريات الأساسية الواردة فيها ، لاطلاع القراء على أهم البراهين التي سردت لتنفيذ فكرة الوحدة والاتحاد ، ولاظهار الحقيقة في قيمة هذه البراهين وقوتها .

الاستشهاد بسنن الحياة العادية

•

تزعم جريدة العمل بأنني « أربأ بالفلسفة أن تنزل إلى مستوى الحياة العادية » وتدعوني إلى التأمل في « المثل الساذج » الذي تضربه لتوضيح مواقف كل من دعاة الوحدة العربية ومعارضيها .

إني لست من الذين يتلذذون بالهيام في سماء الفلسفات ؛ ولذلك البي دعوة « العمل » بكل ارتياح ، وأصغي إلى ما تقوله في هذا الصدد بكل انتباه .

وانقل فيما يلي « المثل » الذي نشرته ، بنصه وفصه :

*

« ما فتىء الجواب الأصح على كل « الفلسفات » التي تسعى لتزيين الوحدة المثلَ الساذج البسيط ، المستمد من سنن الحياة اليومية :

« عائلة واحدة (ولنسلم جدلاً بأن هذه الشعوب من عائلة واحدة جنساً وأصلاً) أراد كل فرد من أفرادها أن يبني لنفسه بيتاً مستقلاً ، ويؤسس عائلة ، يتولى بنفسه مسؤوليتها .

« أفرأيت أحداً يتنكر لهذا الفرد ، أم ان الجميع يحبذونه ، ويرون انه إنما يزيد في قوّة العائلة الأصلية بما يضيفه اليها وبما يستقل به .

« حديثنا (نحن دعاة التجزئة رعاك الله !) مع دعاة الوحدة وفلاسفتها يختصر بهذا المثل :

— اريد أن أنام في غرفة مستقلة .

— خسئت ، بل ننام في غرفة واحدة » .

*

أنا لا أدري بأي حق تعتبر جريدة العمل الدعوة الى الاتحاد بمثابة دعوة الى النوم في غرفة واحدة ؟

يظهر أنها تتوهم بأننا ندعو إلى جمع الأقطار العربية في « دولة شديدة التمركز » ، على غرار الدول العربية القائمة الآن ، في حين أن ذلك يخالف الحقيقة والواقع مخالفة كلية .

إني لم أكن من محبذي « نظام المركزية » الذي تسير عليه

الدول العربية في الحالة الحاضرة . فقد انتقدت هذا النظام بشدة ، ودعوت إلى اللامركزية في مناسبات عـــديدة . ولم أقصد من اللامركزية توسيع سلطات رؤساء الدوائر الادارية فحسب ، بل قصدت توسيع سلطات المجالس التمثيلية المختلفة، إلى حد يخولها حق فرض ضرائب خاصة أيضاً .

وقد قلت – في السنة الماضية – بمناسبة قانون أصدرته إحدى الدول العربيـــة – ، « بأننا نخطىء خطأ عظيماً إذ نظن أن الديموقراطية تقوم على الحيـــاة البرلمانية وحدها . لأن اسس الديموقراطية الحقيقية هي المجالس التمثيلية المحلية . وأما البرلمانات فما هي – في حقيقة الأمر – إلا بمثابة التيجان التي تتوّج مجموعات المجالس التمثيلية المحلية .

فمن ينتقد الدول العربية القـائمة على تمسكها بنظام المركزية ، ويستحثها على تكوين مجالس تمثيلية محلية ذات سلطات حقيقيـة ، هل يمكن أن يقصد من « اتحاد » هذه الدول ، دعوته إلى تكوين « دولة شديدة المركزية » ؟ فكيف يجوز تشبيه دعوته بالدعوة إلى النوم في غرفة واحدة ! .

هذا ، ولازالة كل الشكوك من أذهان محرري «العمل» في هذا المضمار ، أرى أن أعلن الحقائق التالية :

عندما اثيرت – قبل بضع سنوات – قضية اتحـــاد سوريا والعراق ، لم أتردد في القول بوجوب اقامة الاتحاد المذكور على أساس النظام الفدرالي . واستطيع أن أؤكد بأن المشروع الذي وُضع عندئذٍ لتحقيق ذلك ، كان مؤسساً على النظام المذكور ؛

فكان يترك لكل واحدة من الحكومتين المذكورتين الحرية الكاملة لتنظيم وتصريف شؤونها الخاصة وفق قوانينها الخاصة ، حسب النظم المعتادة في الدول الفدرالية .

ولذلك كله ، استطيع ان اقول بكل تأكيد : ان المثل الذي ضربته جريدة العمل ، لا ينطبق على حقائق الامور ، بوجه من الوجوه .

*

واما المثل الذي ينطبق على مواقف كل من دعاة الاتحاد ومعارضيه انطباقاً صحيحاً — في حدود التشبيه الذي سطرته العمل — فهو غير ذلك تماماً :

ان البيوت المذكورة في التشبيه قائمة في منطقة غير مأمونة ، معرضة لتعدّيات اللصوص وقطاع الطرق ، ولذلك تحتاج الى حراس ، يدفعون عنها شرور هؤلاء . وفعلاً ، يستخدم اصحاب كل واحد من تلك البيوت حراساً لهذا الغرض .

ونحن نقول : لماذا تنفرد كل واحدة من العائلات التي تسكن تلك البيوت بحراسة خاصة بها ؟ لماذا لا تشترك مع شقيقاتها لايجاد « حراسة مشتركة » تضمن الامن والطمأنينة لجميعها ، على أحسن الصور وأفعلها ؟

ثم ، ان اصحاب هذه البيوت لا يعيشون بمعزل عن العالم ، بل ان كل واحد منهم يتصل على الدوام بالخارج ، بوسائط مختلفة وباساليب متنوعة .

ونحن يقول : لماذا يحاول كل واحد من اصحاب تلك البيوت ،

ان يشق لنفسه طريقاً خاصاً به ، وينشىء على هذا الطريق الجسور والمعابر التي يحتاج اليها ، دون ان يشرك في امرها احداً من اشقائه؟

لماذا يهيء كل واحد منهم طائفة من وسائل الاتصال، تختص به دون غيره ؟ لماذا لا يشترك جميع هؤلاء مشاركة فعلية لاستكمال وسائل الاتصال وتنظيم اساليبه ؟

ان الفرق بين مواقف دعاة الاتحاد ومواقف معارضيهم، يتجلى اكثر ما يتجلى، بهذا المثال .

نحن لم نقل ابداً : يجب ان ننام في غرفة واحدة ؛ بل نقول : يجب ان نوحد جهودنا في بعض الامور . ونقصد من ذلك، توحيد شؤوننا الدفاعية وامورنا الخارجية بوجه خاص .

واما معارضو الاتحاد ، فيقولون : كلا ، نحن نود ان نبقى مستقلين في كل شيء ...

حتى ان عدداً غير قليل منهم يقول اكثر من ذلك . انهم يقولون: ونود كذلك ان تبقى جميع البيوت الاخرى ايضاً مستقلة بعضها عن بعض في كل شيء ...

انا افهم ان يقول احد اصحاب هذه البيوت — او احد رؤساء هذه العائلات : انا اود ان ابقى مستقلاً في جميع شؤوني ، مهما كلفني ذلك من جهود ومشاق واضرار .

انا افهم ذلك ، فأقول : في هذه الحالة ، ما على اصحاب البيوت الاخرى ، الا ان يحترموا ارادته ، ويتركوه وشأنه، يواصل تجربته في السير في السبيل الذي اختاره لنفسه .

ولكني لا افهم ابداً، ان يذهب الرجل الى حد ابعد من ذلك،

ويقول : واودّ – فضلاً عن ذلك – ان تبقى سائر البيوت ايضا مستقلة تمام الاستقلال .

انا لا افهم ذلك ،واعتقد – في هذه الحالة – أنه يحق لأصحاب البيوت الاخرى ان يقولوا له ، بكل حزم : اما هذا ، فلا !

افلا يحق لي ان استغرب كل الاستغراب عندما ارى ضجيج المعارضين يعلو ويشتد ، كلما حاول اثنان او ثلاثة من اصحاب هذه البيوت ان يهدموا الجدران الفاصلة بين حدائقهم ، وان يوحدوا حراسهم ووكلاء امورهم ؟...

افلا يحق لي ان استنكر كل الاستنكار الاصوات التي ترتفع للحيلولة دون هذه الجهود الاتحادية ،زاعمة ان أيّ تغيير في عدد هذه البيوت وهذه العائلات يضر الجميع ، مدعية بان الاوضاع الحالية يجب ان تبقى كما هي ، دون تغيير ، الى الابد ؟...

أعتقد ان التشبيه الذي يمثل مسالك دعاة الاتحاد ومعارضيه اصدق تمثيل ، هو هذا المثال الاخير .

ألم يكن مصدر الضجيج الذي قام الآن ، هو « المشروع الذي يرمي الى توحيد المملكة الاردنية مع دولة عربية اخرى ، بصورة من صور الاتحاد » . ؟

*

ها اني لبيت دعوة «العمل» ، ودرست القضية ، دون أن أطرق باب فلسفة من الفلسفات ، ودون أن أنحرف عما سمته «العمل» سنن الحياة العادية . ومع ذلك توصلت الى نتائج منطقية ، تختلف عن التي توصلت اليها جريدة « العمل » في هذا المضمار ..

هذا ، وتنتقل «العمل» – عقب العبارات التي ذكرتها آنفاً – الى أمر الشعوب العربية ، فتقول :

« كل شعب من الشعوب العربية يريد (أو يجب أو من المفضل) أن يبني بيتاً مستقلاً ، ويؤسس عائلة ، وينصرف الى رسالة ، خصوصاً وان احواله الطبيعية والجغرافية والتاريخية تسهل له ذلك .

« أفيكون في ذلك اضعاف للعائلة الأصيلة – ، أم ان ذاك مما يزيد في قوتها مادياً ومعنوياً ؟ »

وفي الأخير ، تسطر هذا السؤال :

«لسنا ندري ماذا تكون حجج الفلسفة ازاء هذا المنطق البديهي العادي المتوافق وسنن الحياة » .

أعتقد ان الأمثلة التي سردتها آنفاً تغنيني عن الاجابة على هذا السؤال .

ومع هذا ، أرى من المفيد – في هذا المقام – أن ألفت الأنظار الى الحقيقة التالية :

ان سنن الحياة لا تنحصر بافاعيل الانفصال والانفراد ؛ بل انها تشمل كثيراً من أفاعيل التكتل والاتحاد ايضاً . ولذلك نستطيع أن نقول : ان كل من لا يلاحظ في سنن الحياة غير الأفاعيل الانفصالية ، يبقى بعيداً جداً عن تفهم حقيقة تلك السنن – ولا سيما في كل ما له اتصال بالحياة الاجتماعية ...

حول الشواهد التاريخية

•

مثال يوغوسلافيا

تعود «العمل» الى بحث الشواهد التاريخية، وتتوسع في الكلام عن مثال يوغوسلافيا. فتقول أولاً:

« لا نعرف ما الذي ساق مثل يوغوسلافيا الى ذهن، وتحت قلم علامتنا الجليل. فنحن لم نقل، بل لا يمكن أن نفكر، ان وقائع التاريخ لا تؤيد سوى أقوالنا! لاننا نعرف ان هذا المسكين التاريخ، يمنح لمن يريد الفتوى التي يريد. وبقليل من اللباقة والرشاقة، يفسح مخرجاً لكل المتناقضات ».

اعترف بانني قرأت هذه العبارات بحيرة عميقة جداً.

أولاً، لان جريدة العمل، هي التي كانت ساقت مثال يوغوسلافيا الى ذهني وتحت قلمي، عندما أرادت ان تستشهد بتاريخ النمسا، فسألت: « كم دولة انبثقت عن النمسا؟ » وأنا كتبت ما كتبته في هذا الصدد لاظهار الحقيقة في قيمة البراهين التاريخية التي استشهدت بها «العمل» نفسها.

ثم، اذا كانت «العمل» تعتقد حقاً بان « التاريخ يمنح لمن يريد، الفتوى التي يريد، فلماذا لجأت الى الاستشهاد بالتاريخ، وذكرت

ما ذكرته من الامثلة ؟

هذا ويترتب عليّ أن اصرح في هذا المقام ، باني لا اشارك « العمل » في الرأي الذي أبدته حول شهادات التاريخ بوجه عام .

أعرف ان هذا الرأي قد شاع كثيراً ، منذ أن اذاعه أحد كتاب فرنسا ومفكريها المشاهير ، باسلوبه الأدبي الأخاذ . ولكني أعتقد بانه بعيد عن الحقيقة بعداً كبيراً .

صحيح ... ان رجال السياسة كثيراً ما يحاولون ان يتسلحوا بحجج تاريخية ضالة ومضللة – محرفة من أصلها ، او مختلقة من اساسها – ولكنّ للنقد العلمي مناحي واصولاً ، تفضح امثال هذه الضلالات والتضليلات ، وتظهر الحقائق التاريخية الى العيان ، على الرغم من كل الجهود التي قد تُبذل لسترها عن الأبصار .

وانا شخصياً كتبت مقالات كثيرة لتصحيح أوهام بعض كتاب التاريخ ؛ ولرفع النقاب عن عوامل الضلال واساليب التضليل في الكتابات التاريخية * ولكني لم أستنتج من ذلك كله ، ان التاريخ « بقليل من اللباقة والرشاقة يفسح مخرجاً لكل المتناقضات » .

ومن حسن الصدف ، ان جريدة العمل نفسها أعطتنا – في مقالاتها هذه – مثالاً جديداً على محاولة استخدام التاريخ لأغراض معينة ، بشيء غير قليل من اللباقة والرشاقة . ولكني أعتقد ان قليلاً من البحث والتفكير سيكفي لاظهار الحقيقة في هذا الشأن ، ولهدم كل ما بنته تلك المحاولة ، على الرغم من كل اللباقة والرشاقة

* آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع ، القاهرة ١٩٥١ .

اللتين رافقتاها .

تقول جريدة العمل :

« لا يجهل علامتنا الجليل ان الاتحاد اليوغوسلافي لم يلتئم بعد ، لان أقوامه لم ترتح اليه. ولا يجهل حضرته أن كلاً من الأيالات والمملكتين في الاتحاد اليوغوسلافي منحت استقلالاً ذاتياً واسعاً جداً ، لتسكت عن الاتحاد. ولا يجهل كم تكلفت وكابدت المملكة لتدعيم وحدة ليست طبيعية في رأي أهاليها – ولا يجهل ان الملك اسكندر ذاته الذي بفضل صفاته وميزاته تأخر تصديع الاتحاد ، قد قتله دعاة الانفصال والاستقلال تعجيلا لاستقلالهم وانفصالهم» .

أنا اعترف بان محرر «العمل» قد اظهر الشيء الكثير من « اللباقة والرشاقة » ، اذ سرد الوقائع سرداً يلائم الغرض الأصلي كل الملاءمة ، مما يجعل القارىء ميالاً الى تصديق كل ما قيل في هذا الباب .

الا ان سحر هذه اللباقة والرشاقة يتبدد ويزول حالاً ، اذا ما خطر على بال القارىء أن يسال : متى واين كان ذلك ؟ وماذا حدث بعد ذلك ؟ في أي تاريخ قتل الملك اسكندر ؟ وكيف تصدع الاتحاد ، بعد قتله ؟

لأن الاجوبة الواقعية التي لا بدمن أن يتلقاها على هذه الأسئلة ، تفهمه على الفور ، بانه – عندما قرأ تلك العبارات كان أمام مرافعة محام يسعى للدفاع عن قضيته بكل ما يخطر بباله من حجج وبراهين ، ولو كانت بعيدة عن الصواب ... لا أمام بحث عالم يسعى وراء اظهار الحقيقة ، أو حاكم لا يحكم الا بالحق ..

ان هذه الاجوبة تعلمه : بان الملك اسكندر قتل سنة ١٩٣٤ ،

وذلك عندما كان خـــارج بلاده ، يقوم بزيارة رسمية للحكومة الفرنسية . وقد مضى على مقتله سبعة عشر عاماً ، لم ينصدع خلالها « الاتحاد اليوغوسلافي » ولم يحدث « الانفصال » الذي أشارت اليه جريدة العمل في مقالتها هذه .

لقد تكوّن الاتحاد اليوغوسلافي ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى ، منذ ثلث قرن تقريباً . وخلال هـــذه المدة ، تعرضت يوغوسلافيا لعـدة عواصف سياسية هوجاء ، وشهدت سلسلة طويلة من الانقلابات الخطيرة . انها عرفت عهد الوصاية ، واجتازت الأزمة الخطيرة التي قامت بين ولي العهد وبين الوصي على العرش ، في أشد الأوقات حراجة من تاريخها المعقد ، ثم منيت بانكسار جيوشها ، واحتلال بلادها واضطرار حكومتها الى الانتقال الى البلاد الاجنبية .

وبعد ذلك شاهدت زوال الملكية وقيام الديكتاتورية ؛ وفي آخر الأمر صارت شيوعية ، داخلة في الكومنفورم ، ثم شيوعية خارجة عليه .. وعلى الرغم من جميع هـذه الأزمات والانقلابات السياسية الخطيرة — الداخلية والخارجية — بقيت « دولة اتحادية » .

فلا أدري بـــأي حق ، وبأي منطق ، تقوم جريدة العمل ، وتدعي بان اتحاد يوغوسلافيا لم يلتئم بعد ، وان اهاليها غير راضين بهذا الاتحاد !..

*

هذا ، وتنتقد « العمل » بشدة ما كنت قلته في مقالتي عن فضل الوحدة على يوغوسلافيا ؛ فتقول :

« اما قول علامتنا الجليل « اذا اصبحت يوغوسلافيا الآن من

الدول القوية التي تحسب جميع الدول حسابها ، واذا استطاعت أن تقوم بدور خطير بين الكتلتين الغربية والشرقية – فان الفضل في ذلك يعود ، في الدرجة الاولى ، الى انها دولة موحدة ، جمعت أبناء اللغة الواحدة ، ووجهت اعمالها واعمالهم نحو غاية واحدة ».لا شك ان علامتنا الجليل شاء ان يسخر وهو يرسل هذا التأكيد الجازم ، فليس هو من يجهل ، حتى ولا قراؤه ، ما هي العوامل الاستثنائية والظروف الخارجية التي مكنت يوغوسلافيا الآن، أن تقوم بدور خطير (كذا) بين الكتلتين الغربية والشرقية – وانهـا عوامل وظروف لا تمت ابداً لكون يوغوسلافيا دولة موحدة .. »

ولكني اؤكد لجريدة العمل ، باني قلت ما قلته في هـذا الصدد ، بكل جد ، وبعد التأكد من صحته كل التأكد .

أولا : اود ان ألفت الانظار الى عبارة « في الدرجة الاولى » التي قيدتُ بها قولي هذا . فهي تدل دلالة صريحة على ان العوامـل الاستثنائية والظروف الخارجية التي تشير اليها العمل ، لم تكن بعيدة عن ذهني ابداً ، عندما سردت رأيي في هذا الصدد .

وبعد ذلك، أسأل : ان هذه العوامل والظروف الاستثنائيـة كلها ، هل كان يمكن ان تأتي بهذه النتائج ، لو لم تكن يوغوسلافيا موحدة ؟

ان « العمل » تزعم ذلك ، بدليـل قولها : « انها عوامـل وظروف لا تمت ابداً لكون يوغوسلافيا دولة موحدة ».

ولكني ، امام هذا الزعم القاطع ، ادعو الى التأمل في هـذه القضية بشيء من التوسع والتعمق: لنفرض ان الاراضي التي تعرف

الآن باسم يوغوسلافيا ، كانت توزعت بين خمس دول ودويلات . وكان بعض هذه الدول ملكية وبعضها جمهورية ، وكان بين رؤساء هذه الدول ملك يحمل في قلبه حقداً دفيناً على ملك آخر ، لانه كان استولى على عرش والده ... فهل كان يمكن – في تلك الاحوال – ان تستفيد الدول المذكورة من العوامل والظروف المساعدة التي تشير اليها العمل ؟

وهل من مجال للشك في ان تلك البلاد ، لو كانت تجزأت على المنوال الذي ذكرته آنفاً ، لأصبحت في حالة بلبلة وفوضى ، شبيهة بالاحوال التي تتخبط فيها الدول العربية الآن ؛ ولمال بعضها نحو الكتلة الغربية وبعضها نحو الكتلة الشرقية ، وتذبذب بعضها بين هذه وتلك . وعلى كل حال ، لما استطاعت الشعوب اليوغوسلافية ان تستفيد – قدر ذرة – من الظروف والعوامل المساعدة التي تشير اليها جريدة العمل .

ولا ادري كيف يمكن لأحد ان ينكر – دون ان يخرج على أبسط قواعد العقل والمنطق ، وعلى اثبت حقائق التاريخ والاجتماع – « بان الفضل في قوة يوغوسلافيا الحالية ومكانتها الراهنة ، انما يعود – في الدرجة الاولى – الى كونها دولة موحدة ؟ »

اني اعتقد : ان انكار هذه الحقيقة ، يكون بمثابة انكار وجود الشمس في رائعة النهار .

مثال المانيا

لقد تطرقت جريدة العمل الى مثال المانيا ايضاً . ولكنها لم

تستطع ان تظهر في امرها اللباقة التي اظهرتها عندما تكلمت عن يوغوسلافيا .

لانها قالت من جهة « ان الوحدة الالمانية تسهلت لأن الشعب الالماني موحد عنصراً وتاريخاً وارادة ومصلحة » ؛ ولكنها زعمت من جهة اخرى « ان الالمان يسعون لان تجزّأ المانيا الى اربع دول بحسب منطق الطبيعة والتاريخ » .

وها اني انقل فيما يلي ، نص ما كتبته العمل في هذا الشأن :

« حتى الوحدة الالمانية – مثال الوحدات ، وحجة دعاة الوحدة – لا يمكن التأكيد انها نهائية ، وان اهلها يرضون بها الا في وجه الأعداء . مع العلم ان توحيد المانيا لم يتم الا في ايام هتلر ، وبفضل تعسف ديكتاتوريته (يوم محا هتلر بقايا الانفصال ، كان اغتباطه الاعظم انه لم يحصل رد الفعل الذي كان يتحسب له .)

« ثم ان الالمان الذين لا يريدون ان تكون رسالة بلادهم وعبقريتها في معاداة جيرانها ، يسعون لأن تجزّأ المانيا الى اربع دول ، بحسب منطق الطبيعة والتاريخ . وكاد حلمهم يتحقق ، لولا التوازن الذي تحتاج اليه ابداً السياسة الأوروبية .

« ولقد قلنا ان الوحدة الألمانية تسهلت لأن الشعب الألماني موحّد عنصراً وتاريخاً وارادة ومصلحة » .

يؤلمني أن أقول – تعليقاً على هذه الفقرات – بأنني لم اصادف طوال حياتي احتشاد هذا القدر الكبير من المزاعم والمدعيات الاعتباطية والآراء المتناقضة ، في مثل هذا العدد القليل من الأسطر والفقرات !

إني لا أرى لزوماً لتفنيد جميع هذه المزاعم واحداً فواحداً . ولكني لن أمنع نفسي من لفت الأنظار إلى ما في هذه الأقوال من تناقض صارخ : إذ كيف يمكن التأليف بين قول « العمل » بأن « الالمان شعب موحّد تاريخاً » ، وبين قولها « ان منطق التاريخ يقتضي تجزئة المانيا الى اربع دول » ؟ أفلا يوجد تناقض صريح بين قولها « ان الالمان شعب موحـــد ارادة ومصلحة » ، وبين زعمها بأن « الالمان يسعون لأن تجزأ المانيا الى اربع دول ، حسب منطق الطبيعة » !

واما القول بان مفكري الالمان يحلمـــون بتجزئة بلادهم الى أربع دول ، وان حلمهم هذا كاد يتحقق لولا التوازن الذي تحتاج اليه السياسة الأوروبية ، فهو قلب للحقائق التاريخية رأساً على عقب.

فان الوقائع التاريخية تشهد شهادة قاطعة على ان تجزئة المانيا لم تكن من أحلام مفكري الالمان ، بل كانت من امانى اعدائها المنتصرين عليها . و « وحدة المانيا » لم تتم بسبب مطالب السياسة الأوروبية ، بل انها تمت بمشيئة الشعب الالماني وعـــلى الرغم من مخالفة السياسة الاوروبية .

يظهر ان جريدة العمل انخدعت في هذا الصدد بالكتابات المغرضة والمضللة التي كان ينشرها كتّاب فرنسا السياسيون ، خدمة لمصالح فرنسا الخاصة .

اني لن ارجـــع الى وقائع القرن التاسع عشر . بل سأكتفي بالتذكير ببعض الوقائع التي حدثت بعد الحرب العالمية الاولى ، لاظهار الحقائق المتعلقة بهذه القضية الى العيان ، بكل وضوح وجلاء.

أولاً ، يجب ان لا يغرب عن البال ان تحول المانيا ، من امبراطورية اتحادية الى دولة موحدة ، قد تم في عهد جمهورية « فايمار » ، في الوقت الذي كان هتلر لا يزال جندياً برتبة عريف.

ثانياً : يجب ان نتذكر جيداً ، ما كان حدث في النمسا ، عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى :

عندما اندرست امبراطورية هابسبورغ ، وانفصلت المناطق السلافية عن النمسا ، اجتمع نواب المناطق الباقية وكوّنوا مجلساً وطنياً أعلن بالاجماع « ان النمسا جزء من الدولة الالمانية » ، وطلب الانضمام اليها. إلاّ ان الحلفاء ، حالوا دون تحقيق امنيتهم هذه ، ووضعوا في معاهدة الصلح التي فرضوها على النمسا مادة تحظر عليها « الانضمام الى دولة اخرى » دون موافقة عصبة الامم. »

ومما هو جدير بالذكر بوجه خاص ، ان قرار الانضمام الى المانيا صدر من مجلس نواب النمسا في الوقت الذي كان هتلر لا يزال بعيداً ، ليس عن دست الحكم فحسب ، بل عن مسرح السياسة ايضاً .

ثالثاً: يجب ان لا ننسى ما حدث في «السار» خلال مذاكرات الصلح وبعدها : كانت فرنسا تحلم منذ مدة طويلة بالاستيلاء على السار وبايصال حدودها الشمالية حتى نهر الرين . وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى بانتصار الحلفاء ، قام ساسة فرنسا يطالبون بفصل السار عن المانيا ، تمهيداً لادخالها تحت حكم فرنسا . ولكن مجلس الحلفاء ، لاحظ ان طلب فرنسا في هذا الباب يخالف مبدأ « حق تقرير المصير » الذي أعلنه الرئيس ويلسن ؛ ومع هذا أراد أن

يماشي فرنسا ، فقرر وضع نظام خاص للسار : تبقى هذه المنطقة منفصلة عن المانيا ، مدة خمس عشرة سنة ، وبعد ذلك يستفتى السكان لتقرير مصير بلادهم بصورة نهائية .

وقد تم فعلاً تطبيق هذا النظام ؛ وظل اقليم السار منفصلاً عن المانيا تمام الانفصال خلال المدة المقررة في معاهدة الصلح . وبعد انقضاء هذه المدة ، جرى الاستفتاء على يد هيئة دولية ، انتخبتها وعينتها عصبة الامم . وقد طلب الى السكان أن يصوتوا لأحد الحلول الثلاثة التالية :

١ – الانضمام الى المانيا .

٢ – الاستمرار على الحالة الراهنة .

٣ – الانضمام الى فرنسا .

واما نتائج هذا الاستفتاء ، فقد جاءت حاسمة تماماً : اكثر من تسعين في المائة من السكان صوتوا للانضمام الى المانيا .

هذا ، على الرغم من الانفصال الفعلي الذي فرض على البلاد فرضاً ، وعلى الرغم من الدعايات والمناورات التي قام بها رجال فرنسا في السار ، خلال خمسة عشر عاماً .

ان عصبة الامم ، لم تسلم ادارة السار الى المانيا ، الا بعد هذا الاستفتاء الذي أجرته بروح الحياد التام .

ومما يجدر بالذكر أنه في ذلك التاريخ ، ما كان يوجد في السار فرد واحد من الجيش الالماني ، وكانت الادارة والأمن في عهدة هيئة دولية تابعة لعصبة الامم .

وقد بددت نتائج هذا الاستفتاء ، جميع الأوهام التي كان

ينشرها كتاب فرنسا ، زاعمين ان أهل السار يكرهون الالمان ، ولا يرضون بعودة بلادهم الى الحكم الالماني أبداً ...

*

هذه وقائع ثابتة ، من الماضي القريب الذي لم ينقطع بعدُ جيل شهود و كتابه .

ان نظرة واحدة الى اي مصدر من المصادر التي استعرضت وسجلت وقائع ما بعد الحرب العالمية الاولى ، تكفي للتأكد من صحة كل ما ذكرناه آنفاً .

وهل في استطاعة « العمل » — امام هذه الحقائق الثابتة — ان تتمسك بقولها « ان اتحاد المانيا تم ايام هتلر بفضل تعسف ديكتاتوريته » ، وان تكرّر زعمها بان مفكري الالمان « يحلمون بتجزئة بلادهم الى اربع دول » و« ان حلمهم هذا كاد يتحقق » لولا مخالفة السياسة الأوروبية ؟

مثال الاتحاد السوفياتي

ومن أغرب الامور ، ان جريدة العمل تستشهد بمثال الاتحاد السوفياتي ايضاً ، للبرهنة على ان انقسام البلاد العربية الى دول عديدة كان من الامور الطبيعية والضرورية :

قالت في احدى مقالاتها « ان الاتحاد السوفياتي بنى اتحاده على مصلحة شعوبه العليا » و « جعل من مقاطعات روسيا السابقة دولاً متميزة الكيان والملامح » .

كما انها أشارت في مقالتها الأخيرة الى « ان الاختبار السوفياتي » يشهد بان الممالك الواسعة « اذا شاءت ان تزيل الاقطاعية اضطرت

الى تقسيم مناطقها الى دول مستقلة » .

تعلمنا «العمل» ، بهذه العبارات الصريحة، ان الدولة المعروفة باسم « الاتحاد السوفياتي » قسمت مناطقها الى جمهوريات « مستقلة ، متميزة الكيان والملامح » ؛ ولكنها لا تقول لنا ما اذا كانت قد جعلت تلك الجمهوريات مستقلة في الامور الدفاعية والخارجية أيضاً .

فأرى من حقي ان اسألها : هل منح الدستور السوفياتي ، كل واحدة من الدول التي يتألف منها الاتحاد ، حق التمثيل الخارجي؟ وهل جعل كل واحدة منها ذات جيش خاص بها ؟

لا شك في ان « العمل » لا تجهل ان الدستور السوفياتي يسلم زمام الشؤون الخارجية والدفاعية كلها لحكومة الاتحاد ، دون سواها .

ان الدستور المذكور يمنح كل واحدة من الجمهوريات التي تؤلف السوفيات ، حق الخروج من الاتحاد — إذا شاءت — ولكنه لا يمنحها حق التفرد باي شأن من الشؤون الخارجية والعسكرية .

ان الاتحاد السوفياتي يكوّن اكبر واوسع الاتحادات التي عرفها التاريخ . انه لم يكتف بجمع وتوحيد الشعوب التي تتكلم بلغة واحدة ، بل جمع كثيراً من الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة ايضاً . انه منح تلك الشعوب استقلالا داخلياً واسع النطاق، ومع هـذا جعله « خاضعاً للاتحاد » خضوعاً تاماً ، في كل ما له مساس بالشؤون الخارجية والامور الدفاعية .

ولذلك كله أستغرب كل الاستغراب ، كيف اقدمت «العمل» على الاستشهاد بمثال الاتحاد السوفياتي للبرهنة على ان تجزئة البلاد

العربية الى دول عديدة كان من الامور الطبيعية ؟

هذا ، وارى من حقي ان اسأل جريدة العمل : هل انها ترى من الموافق ان تعمل البلاد العربية بما يوحيه «الاختبار السوفياتي»، – من وجهة التنظيم السياسي – فتكوّن اتحاداً شبيهاً بالاتحاد السوفياتي ؟

اذا وافقت «العمل» على ذلك، فاني على تمام الاستعداد لأن اضع يدي في يدها، واعلن على الملأ بانه لم يبق بيني وبينها اي وجه للخلاف..

*

انا افهم ان يذكر « الاختبار السوفياتي » عندما تجري مناقشة حول المفاضلة بين نظم المركزية واللامركزية والفدرالية... ولكني لا افهم ان يذكر «الاتحاد السوفياتي» عندما تناقش قضية الاتحاد او عدم الاتحاد من أساسها ...

نظرية تعدد الدول حسب تعدد اللهجات

•

طلعت علينا « العمل » – في مقالتها الخامسة – بنظرية جديدة، لتعليل وتبرير انقسام البلاد العربية الى دول عديدة : هي نظرية قيام الدول على أساس اللهجات .

تتكلم «العمل» عن « أمر اللهجات العربية»، وتشير الى «اختلافها البين الشديد من دولة الى دولة » ، ثم تقول :

« كفى دليلاً على ان كل دولة ، انما تشكل « كياناً واقعياً » (ولو سخر علامتنا من التعبير) وتشكل وحدة قائمة بذاتها ، اللهجة التي يتفاهم بها شعب كل دولة : لهجة خاصة متجانسة ضمن حدودها ، ومختلفة عن لهجة الجيران والاخوان !

« حدود كل لهجة ، هي ذاتها حدود كل دولة » .

وبعد هذا الحكم البتار ، تواصل الكلام عن اختلاف اللهجات في البلاد العربية :

« قال علامتنا الجليل انه في تجوله بين سوريا والعراق ، لم يشاهد ما يمكن أن يميز مقاطعة في هذه الدولة عن مقاطعة في تلك ، ولا ماذا يجعل الواحدة عراقية والثانية سورية .

« ترى ، ألم يسمع علامتنا ما الذي يميز العراقي عن السوري ؟

« اللهجة ليست حدثاً طارئاً عابراً ، ولكنها الشاهد على ذهنية، بل وعلى عنصرية ، وعلى بيئة تاريخية وجغرافية .

« فلماذا تختلف اللغات (ولنسمها لهجات) بين دولة ودولة في « البلاد العربية » وفي « الشعب العربي » ؟

« من جهتنا ، لم يتسنّ لنا برهان قاطع بعد انها اتفاقيـــة سايكس بيكو هي الـــتي قسمت اللهجات ووزعتها ، وباينت ما بينهـــا .

« اذا لم يكن غير الأطماع الاستعمارية من عامل جزأ البـلاد العربية وقسمها الى دول ، فكيف نشرح هذه الظاهرة الفريدة : ان اللهجة العراقية لا تتعدى العراق — واللهجة السورية لا تتعدى سورية — واللهجة المصرية لا تتعـدى مصر — واللهجة الفلسطينية لا تتعدى فلسطين — واللهجة اللبنانية لا تتعدى لبنان.

« هذه الظاهرة ألا تدل على شيء ؟ ألم تكن اللهجات بتباينها ، موجودة قبل ان « أوجدت» اتفاقية سايكس بيكو هذه الدول؟»

وبعد هذه البيانات والأسئلة ، تقول « العمل » :

« نعرف الجواب .

« انه جواب تقليدي جاهز :

« ان هذه اللهجات منبثقة عن لغة واحدة ، وان في كثير من الدول تتباين اللهجات من مقاطعة الى مقاطعة ، وان هذه الشعوب العربية مهما اختلفت لهجاتها تفهم لغة واحدة » .

وبعد هذا الجواب الذي اعطته «العمل» بنفسها لنفسها ، راحت تستنتج من ذلك ما راق لها من الاستنتاجات .

ولكن «العمل» أخطأت الصواب، عندما تنبأت بما سيكون عليه جوابي انا ، وقالت « ان الجواب معلوم ..، هو الجواب التقليدي الجاهز . »

ومع هذا ، إنها سترى الآن ان جوابي على اسئلتها يختلف عما توقعته هي – بهذه الصورة – كل الاختلاف .

فاني سألاحظ اولاً: ان محرر العمل ذكر اللهجات التي كونت الدول العربية، واحدة فواحدة ؛ ولكنه لم يذكر اللهجة الاردنية ابداً . هل كان ذلك ذهولا ؟ ام كان لان المحرر شعر بنفسه ان هذه النظرية مهما بولغ في امرها ، لا يمكن ان تنطبق على احوال الاردن ؟ وهل لي ان استدل من ذلك : ان المحرر يعترف بذلك ضمناً – على الاقل – بان الدولة الاردنية غير طبيعية ؟

وبعد هذه الملاحظة الاستطرادية العابرة، انتقل الى اصل البحث، واقول بلا تردد :

انا لا اسلم بوجود لهجة عراقية «متجانسة ضمن حدود العراق» ، و « مختلفة عن لهجات الجيران والاخوان » ... كما تزعم بذلك جريدة العمل .

ومع اني تجولت في مختلف انحاء العراق مدة عشرين عاماً ، لم اطلع على وجود « لهجة تنطبق حدودها على حدود الدولة العراقية » ابداً .

وقد عرفت حق المعرفة بان ما يسمى عادة « اللهجة العراقية » ليس – في حقيقة الامر – الا لهجة بغداد ، وما يتصل بها من اواسط العراق . كما عرفت جيداً بان لمنطقة الموصل ، لهجة خاصة

بها ، تختلف عن اللهجة البغدادية اختلافاً كليا ، ليس ببعض الالفاظ والكلمات فحسب ، بل بكيفية نطقها واعراب كلماتها ايضاً ، فلو كانت حدود كل لهجة هي حدود كل دولة – كما تزعم « العمل » – لوجب ان تكوّن الموصل ، دولة منفصلة ومستقلة عن العراق .

هذا ، واني استطيع ان أقول نفس الشيء ، بكل تأكيد، عن سورية وعن مصر ، وعن سائر البلاد العربية ايضاً .

ان ما يسمى عادة « اللهجة السورية » ، هو – في حقيقة الامر – لهجة دمشق وما جاورها من اقسام الشام ، واما منطقة حلب، فلها لهجة خاصة، تختلف عن لهجة دمشق وما جاورها اختلافاً كبيراً .

كما ان ما نسميه عادة « اللهجة المصرية » لا يشمل جميع اقسام القطر المصري ؛ فان لبلاد الصعيد لهجة خاصة بها ، تتميز عن لهجات سائر اقسام القطر المصري باجمعها تميزاً صريحاً ...

ولا اظن ان «العمل» نفسها ، تستطيع ان تبرهن على وجود لهجة لبنانية ، تنطبق حدودها على حدود لبنان السياسية .

واستطيع ان اؤكد بان اللهجات في البلاد العربيـــة كثيرة ومتنوعة جداً: فلو كان « عدد الدول وحدودها » من الامور التي تتعين وتتقرر بعدد اللهجات وحدودهـــا ، لوجب ان تنقسم كل واحدة من الدول العربية القائمة الآن ايضاً الى دويلات عديدة .

*

وبعد كل ما ذكرته آنفاً ، اقول بلا تردد : ان تعليل تجزئة البلاد العربية – وتبرير تعدد دولها – باختلاف اللهجات ، لهو من اوهى المبررات واغرب التعليلات .

والتجاء «العمل» الى مثل هذه التعليلات الواهية ، ان دل على شيء ، فانما يدل على حيرتها من امرها ، وعجزها عن العثور على أدلة معقولة تبرر « تعدد الدول العربية » ، وتبرهن على ان هذا التعدد، هو من الامور الطبيعية .

حول العنصرية

أثارت العمل في عدة مواضع من مقالاتهـــا قضايا العنصرية ، وتكلمت عن الأصل والسلالة والدم ..

انها سألت في احدى المقالات : « مـــاذا يعني اننا عرب ؟ وكيف نحن عرب ؟ أجنساً ودماً ، ام مولداً وموطناً ونشأة ؟ »

ثم توّجت عنوان احدى مقالاتها بهذا السؤال :

« هل ثمت شعب عربي ؟ أم شعوب تنطق العربية ؟ » .

انها زعمت بان الشعب الالماني موحـد عنصرياً ؛ وبعد ان اكدت على « وحدة الشعب الالمـــاني العنصرية » وجّهت إليّ هذا السؤال :

« هل سكان البـــلاد العربية شعب عربي ، ام شعوب تنطق بالعربية ؟ » .

*

واما أنا ، فلا أرى أي وجه لمثل هذه الأسئلة؛ لأني لا أعرف أي مبرر كان للتمييز بين « الشعب العربي » وبين « الشعوب التي تنطق بالعربية » .

فاني أعلم العلم اليقين : ان الابحاث العلمية برهنت برهنة قاطعة

على انه لا يوجد على وجه البسيطة شعب منحدر من اصل واحد حقيقةً .

لا توجد في المانيا « وحدة عنصرية » ، كما تزعم ذلك جريدة العمل : ان سكان البلاد الالمانية المان ، على الرغم من كونهم منحدرين من اصول مختلفة .

وكذلك الفرنسيس والروس والأتراك ، وسائر الشعوب والامم . كلهم بعيدون عما يسمى « الوحدة العنصرية » ، أو « وحدة الأصل والدم » بعداً كبيراً .

والعرب لا يختلفون عن هذه الامم في هذا المضمار ، بطبيعة الحال .

واما محاولة التمييز والتفريق بين « العرب » وبين « الناطقين بالعربية » - أي بين الـ arabe وبين arabophone حسب تعبير الفرنسيين ، فهو من وسائل التضليل والتفرقة التي كثيراً ما يلجأ اليها الكتاب المستعمرون .

*

هذا ، ومن المفيد أن أذكر في هذا المقام : ان الجنرال غورو كان يذكر « السوريين » في كتاباته الرسمية سنة ١٩١٠ و ١٩٢٠ بقوله : « الشعوب السورية التي تتكلم العربية » ؛ والحكومة العربية السورية القائمة عندئذٍ كانت تحتج على هذه التسمية وهذا التعبير بصورة رسمية .

وكانت قد جرت بيني وبين جماعة من الفرنسيين مناقشة حول هذا الموضوع . قلت لهم خلالها : هل تفكرون مثل هذا التفكير عن

اهل بلادكم أيضاً ؟ هل تسألون مثل هذه الاسئلة عن الـ « بروتون، والنورمان ، واللورين ... » الذين يسكنون المقاطعات الفرنسية المعلومة ، مثلاً ؟ وهل تسمحون أن يقال عنهم «انهم ليسوا فرنسيين، وانما هم ناطقون باللغة الفرنسية ؟ Francophone . لماذا تقيسون شؤوننا بمقياس يختلف عن المقياس الذي تقيسون به شؤونكم ، اختلافاً كبيراً ؟ »

أظن ان ما قلته وقتئذ لهؤلاء ، يغنيني عن قول شيء جديد الآن ، رداً على سؤال جريدة العمل في هذا الباب .

*

ومع هذا ، أود أن أنقل في ما يلي ، بعض الفقرات من محاضرة كنت القيتها في نادي المعلمين ببغداد :

« ان جميع الامم مختلطة ومتداخلة من حيث الأصل والدم .

« انني اشبه الامم من هذه الوجهة بالأنهر العظيمة . فمن المعلوم ان كل نهر من الأنهر ، تجري فيه مياه أتت من منابع ومصادر وروافد مختلفة . والأنهر الكبيرة تكون كثيرة المنابع وعديدة الروافد بوجه عام ...

« هذا نهر دجلة ، مثلاً : من منا يستطيع أن يجزم من أين أتت المياه التي تسيل فيه الآن ؟ من منا يستطيع أن ينكر ان هذه المياه آتية من نواح مختلفة جداً ؟ كلنا نعلم ان قطرات هذه المياه ، قد تكون متأتية من العيون التي تنبع من تحت التراب أو من بين الصخور ؟ وقد تكون متولدة من ذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال ؛ وقد تكون آتية من السيول المتكونة من هطول الأمطار . وكل

ذلك قد يكون من جراء ما حدث في أعالي الزاب ، او على سفوح جبل حمرين ، او في سهول الموصل ، او على جبال زاخو ، او في ديار بكر ... ومهما كان الأمر ، فان جميع هذه المياه المختلفة المصدر تسير الآن جنباً الى جنب ، في مجرى واحد، وتكوّن هذا النهر الذي يجري امامنا . اننا نسمي هذه المياه باسم مياه دجلة ، من غير ان نفكر في منشأها الخاص ، او ان نتساءل عن طول المدة التي مضت منذ التحافها بهذا المجرى الطويل ، وانتسابها الى هذا النهر العظيم .

« ان احوال الامم ومنابعها تشبه ذلك شبهاً كبيراً .

« ان الانجليزي المثقف لا يعرف ما اذا كان بينه وبين شكسبير او نيوتون ، او ميلتون ، رابطة اصل ونسب . ومع ذلك فانه يعتبر هؤلاء اجداداً له واسلافاً ، ويفتخر بهم اكثر مما يفتخر باجداده الحقيقيين .

« وكذلك الفرنسي المثقف . فانه لا يتساءل عما اذا كان يجري في عروقه حقيقة شيء من دم شارلمان ، او راسين ، او فولتير ؛ ومع هذا ، فهو يعتبر هؤلاء كلهم اجداداً له واسلافاً ، ويعتز بهم اكثر مما يعتز ببني اسرته الأقربين .

« فيجدر بنا نحن العرب ايضاً ان نحذو حذو هؤلاء : قد لا نعرف ما اذا كان يربطنا شيء من اواصر القرابة والنسب بسعد بن ابي وقاص ، مثلاً ، او خالد بن الوليد ، او ابن الهيثم ، او ابي العلاء المعري ، ولكننا مع ذلك يجب ان ننتسب الى هؤلاء والى امثالهم ، ونعتبرهم اجدادنا المعنويين ، ونفتخر بهم اكثر مما نعتز

ونفتخر بابناء اسرنا الحقيقيين » . (آراء واحـــاديث في الوطنية والقومية . ص ٢٤ و ٢٥) .

*

ان المؤمنين بفكرة القومية العربية يقولون « اننا عرب » بهذا المعنى ، لا بمعنى « اننا متحدرون من الجزيرة العربية » .

قضايا مختلفة

•

كلمة الوحدة

لقد أنهت جريدة العمل مقالتها الاولى بالعبارات التالية :

« اما حقيقة الخلاف بيننا ، فعلى كلمات .

« فالوحدة كلمة اكثر مما هي فكرة .

« الوحدة كلمة ، أرادوا أن يجعلوها مقام فكرة » .

اني قرأت هذه العبارات ، بحيرة عميقة جداً . لاني لست من الذين يخضعون تفكيرهم لسيطرة الكلمات ؛ فلا يمكن ان اختلف مع احد ، من جراء كلمات لا تعبر عن فكر .

و« الوحدة » في نظري أسمى بكثير من ان تكون كلمة ؛ انها تدل على فكرة سامية . وفكرة الوحدة ، انما هي من الفكر الفعالة التي تحرك الهمم ، بقوة كبيرة . انها من « الفكر القوانية » التي غيرت معالم خارطة اوروبا السياسية ، تغييراً كبيراً جداً ، في مدة لا تزيد على نصف القرن كثيراً .

ولا أدري كيف سوغت « العمل » لنفسها القول بان الوحدة كلمة أرادوا ان يجعلوها مقام فكرة !

---

* نسبة الى « القوى » كقولك روحاني وعلماني الخ . (الناشر)

حديث الاقطاعية

تقحم « العمل » قضية الاقطاعية ، بين أبحاث الوحدة العربية ، لانها تزعم بان الوحدة تؤدي حتماً الى توسيع الاقطاعية وتقويتها .

واما أنا فأؤكد كل التأكيد ان كرهي للاقطاعية ، ليس أقل من كره جماعة « العمل » لها ؛ واصرح باني اقدر المساعي التي تبذل لمحاربة الاقطاعية كل التقدير . ومع هذا ، لا أرى اي مبرر كان لاقحام قضية الاقطاعية بين ابحاث الوحدة العربية .

لاني أعتقد : ان صغر الدولة لا يضمن خلاصها من الاقطاعية ؛ كما ان كبرها لا يحول دون تأسيس الحكم الشعبي فيها .

ولا أراني في حاجة الى ذكر الأمثال واقامة البراهين على صحة قولي هذا . لان أقرب الحوادث الينا — زماناً ومكاناً — مليئة بالأمثلة الحاسمة على هذه القضية .

مصالح الشعب

تدعو العمل في مقالتها الاخيرة الى الاهتمام بمصالح الشعب ، فتقول :

« ان الغاية الأساسية من السياسة انما هي خدمة مصالح الشعب »

« والهدف الأوجب للسعي ، في شرقنا وفي احوالنا ، هو نهضة الشعب ، في افراده وفي مجتمعه .

« وذلك لا يتسنى الا باستنباش وتحقيق امكانات كل منطقة ، وكل نفس » .

اني اوافق على هذه الآراء تمام الموافقة . لاني قضيت حياتي

في العمل في هـذا السبيل ؛ ودعوت على الدوام الى التقـدم والنهوض ؛ كما دعوت غير مرة الى الثورة والانقلاب ، لتسريع التقدم المنشود .

ولذلك ، اني احبذ كل التحبيذ كل دعـوة ، وكل مشروع ، وكل عمل ، يرمي الى انهاض الشعب نهضة حقيقية .

*

غير اني اختلف مع محرر « العمل » كل الاختلاف ، عندما اراه يعقب على العبارات التي ذكرتها آنفاً ، بهذا الزعم الغريب :

« من هنا نرى ان تقسيم البلاد العربيـة الى دول يسهل تلك المهمة » .

ان بطلان هذا الزعم واضح كل الوضوح :

لأن البلاد العربية مجزأة فعلاً الى دول ودويلات ؛ ومع هذا ، لا تزال تحكمها حكومات لا تعمل لمصالح الشعب الحقيقية !

فأرى لزاماً عليّ ان اكرر هنا ما قلته آنفاً عن قضيـة الاقطاعية : ان مبلغ خدمة الحكومات لمصالح الشعب ورفاهيته لا تتبع كبر الدول او صغرها .. إنما تتبع نظم الحكم وأجهزة الادارة القائمة فيها ، من ناحية ؛ ومبلغ اخلاص القابضين على زمام الحكم والادارة — مع درجـة فهمهم لمقتضيات الحكم الصالح والحضارة العصرية ، من ناحية اخرى .

*

تقول العمل : « انما الدولة تنساق للتغاضي عن مصالح الشعب والافراد ؛ يوم يكون همها الاول تثبيت وحدتها على جيش قوي

مثلاً وعلى محالفات اجنبية » .

واما انا فأقول : ان الدولة القومية لا تحتاج الى جيش قوي لتثبيت وحدتها أبداً ..

يلوح لي ان « العمل » تخلط هنـــا بين الدول القومية وبين الامبراطوريات .

لأن الامبراطوريات تحكم قوميات عديدة ومتنوعة ؛ ولذلك تحتاج الى جيش قوي لتثبيت حكمها على تلك القوميات .

واما الدولة القومية ، فلا تحكم الا امة واحـدة ؛ ولذلك لا تحتاج الى مثل ذلك الجيش . فان الوحدة فيها ، تكون طبيعيـــة وطواعية .

*

ان الملاحظات التي ابدتها «العمل» تخولها ـ منطقياً ـ ان تطلب من دعاة الاتحاد ان يكونوا ـ في الوقت نفسه ـ من دعاة الاصلاح وعمال الانهاض ؛ ولكنها لا تخولها قط ـ ان تطلب اليهم ان يكفوا عن العمـل في سبيل الاتحـــاد ، لكي لا يتأخر التقدم والاصلاح .

وهنا ، لا بـد لي من التصريح بانني قلت وكتبت مراراً بان الفكرة القومية ، يجب ان تكون مقترنة بالنزعة التقدمية ، ويجب ان تتجرد عن كل انواع النزعات الرجعية ...

وأرى من المفيد ان انقل فيما يلي ، العبارات التي كنت ختمت بها احدى محاضراتي :

« يجب علينا ان نسلك ـ بدون تأخر وبجزم واندفـــاع ـ

مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية .

« التجديد في كل شيء: في اللغة والأدب، في التربية والاخلاق، في العلم والفن ، في السياسة والثقافة ، في الزراعة والصناعة والتجارة ...

« التجديد في كل مكان: في البيت والمدرسة، في القرية والمدينة، في الشارع والحديقة ...

« التجديد في كل زمان ، وفي كل شيء ، وفي كل مكان ... يجب ان يكون شعارنا على الدوام » *

كبر الدولة وصغرها

تقول « العمل » في احدى المقالات :

« ان الدول الكبرى – خصوصاً تلك التي تتألف من تجميع وحدات – لا تستطيع المحافظة على كيانها ، الا بالتضييق على شعوبها وافرادها . فضلاً عن انها تستثير حذر جيرانها وريبتهم وعداءهم – وبالتالي، فان جهودها تنصرف الى تدعيم كيانها كدولة على حساب السلم ، وعلى حساب رفاهية الشعب ، وعلى حساب حريات الأفراد » .

واما انا ، فأقول ، بدون تردد : ان تضييق الدولة على حريات الأفراد او عدم تضييقها ، وخدمة الدولة لرفاهية الشعب او عدم خدمتها ... ليست من الامور التي تتبع كبر الدولة او صغرها .

* آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ص ١٦

كم من دولة صغيرة تسير على سياسة استغلالية واستبدادية ؛ وكم من دولة كبيرة تعطي أرقى نماذج الحكم الصالح الذي يخدم رفاهية الشعب ، مع مراعاة حريات الأفراد كل المراعاة .

اعتقد ان «العمل» تخلط هنا ايضاً ، بين مسالك الامبراطوريات التي تحكم امماً عديدة ، وبين طبائع الدول القومية التي تقوم على رأس امة واحدة .

*

وفي الأخير ، أود ان ألفت الانظار الى احد المزاعم الواردة في هذه الفقرات :

تقول العمل : « ان الدول الكبيرة ... تستثير حذر الجيران وريبتهم وعداءهم » ، وتدعونا لذلك — ضمناً — الى ان نبقى دولاً صغيرة ، لكي لا نستثير مثل هذا الحذر والريبة والعداء .

ولكني استغرب كيف فاتها أنّ ضعف الدول الصغيرة ، يستثير شهية الدول الكبيرة ، ويغذي اطماعها ، ويغريها على بسط نفوذها وسيطرتها عليها ؟

وكيف فاتها ، أن ما تحتاج اليه البلاد العربية الآن ، ليس عدم اثارة حذر الجيران وعداءهم ، بل هو وضع حدّ لأطماع الدول الكبرى ، ودفع عدوانها ؟...

نقد آراء

انطون سعاده

مؤسس الحزب السوري القومي

انطون سعادة وحزبه

•

لم يظهر في العالم العربي الى الآن ، حزب يضاهي الحزب السوري القومي ، في الاهتمام بالدعاية المنظمة التي تخاطب العقل والعاطفة معاً ، وفي التنظيم الحزبي الذي يعمل بلا انقطاع في السرّ والعلن .

وقد استطاع هذا الحزب – بفضل تنظيمه – ان يوجد تياراً فكرياً وسياسياً قوياً جداً ، في سورية وفي لبنان .

فيجدر بنا ان نتساءل : ما هو حظ هذا التيار القوي من الصواب والصلاح ؟

اني لم استطع الوصول الى جواب صريح وصحيح على هذا السؤال ، الا سنة ١٩٤٨ ، خلال احدى زياراتي الى بيروت ، حيث ساعدتني الظروف على الاجتماع بزعيم الحزب ومؤسسه انطون سعادة مرتين ، في جو عائلي هادىء ، بعيد عن المظاهر والرسميات.

وقد وجدت خلال هذين الاجتماعين مجالاً كافياً لمحادثته ومناقشته في مختلف المسائل العربية .

ونتائج هذه المحادثات والمناقشات ، عندما انضمت الى المعلومات التي كنت قد حصلت عليها في ازمنة مختلفة – بصور متفرقة –

حول اعمال الحزب ونشاطه ، رسمت في ذهني الصورة التالية ، عن نشأة الحزب ، وعن نزعة زعيمه انطون سعادة :

أسس « سعادة» الحزب السوري القومي ، لمحاربة روح الطائفية والنزعة الانعزالية ، التي لاحظها في لبنان ، في الوقت الذي ما كان يُعرف بعد ، شيئاً يذكر عن احوال سائر البلاد العربية . ولذلك اخذ يدعو الى فكرة « القومية السورية » منددا بالانعزالية اللبنانية الضيقة من ناحية، وبالقومية العربية الشاملة من ناحية اخرى.

ولكنه .. عندما اخذ يطلع شيئاً فشيئاً على احوال البلاد العربية عن قرب ، لاحظ على الفور الروابط الوثيقة التي تربط سوريا والعراق ، من وجوه عديدة ، وادرك بذلك ضرورة توسيع مفهوم القومية التي يدعو اليها .

غير انه – لغوصه في معامع النضال الحزبي السياسي – لم يشأ أن يعترف بخطأه الاول ، فلجأ الى ادخال العراق في مفهوم « سورية الطبيعية » ، واخذ يسميه باسم « سورية الشرقية » ، ووسع بذلك نطاق اهداف الحزب ، دون ان يغير اسمه .

انه ظل معارضاً لفكرة القومية العربية ؛ ومع هذا ، ادرك ضرورة تأسيس « جبهة عربية » واعتقد انه يترتب على سورية ان تقوم بالدور الاهم في تكوين وتوجيه هذه الجبهة ، مع تقويتها على الدوام .

ولا شك في ان التطور الذي حصل في آراء انطون سعادة ، كان من شأنه ان يوصله – عندما يستمر – الى تطور آخر ، ويحمله على تحويل فكرة « الجبهة العربية » بصورة تدريجية الى نوع

من « الفدرالية العربية » ..

هذه هي الفكرة الاساسية التي تكوّنت في ذهني سنة ١٩٤٨ ، بعد اجتماعي بزعيم الحزب ، واطلاعي على نزعاته الاصلية .

وقلت في نفسي عندئذ : لا شك في ان الرجل ، سيلتقي بنا في آخر الامر ، عاجلاً او آجلاً .

*

ولكن الامور تعقدت بعد ذلك بسرعة كبيرة ، وانتهت انفاس الرجل فجأة في ظروف شاذة ، جمعت خصائص الملهاة والمأساة .

مأساة وملهاة ، اشترك في تمثيلها على مسرح السياسة انطون سعادة وحزبه من ناحية ، وحكومتا سوريا ولبنان من ناحية اخرى .

انتهت حياة الرجل ، وحلت الحكومة اللبنانية حزبه بصورة رسمية . ومع هذا ، لا يخفى على احد ان تعاليمه لا تزال منتشرة بين طائفة غير صغيرة من الشبان اللبنانيين ، كما ان الحزب نفسه لا يزال يواصل نشاطه في سورية ، بصورة علنية ، وبرخصة رسمية .

ولهذا ، عندما قررت في اوائل هـذه السنة ان اقوم بدراسة مقارنة عن الاحزاب السياسية الموجودة في مختلف البلاد العربية ، رأيت من الضروري ان ادرس منهاج « الحزب السوري القومي الاجتماعي » دراسة مستفيضة ؛ فراجعت سكرتارية الحزب في دمشق ، راجياً منها تزويدي بنسخة من منهاج الحزب ونظامه ، وفقاً للخطة التي رسمتها لنفسي مع سائر الاحزاب السياسية ، في سائر الاقطار العربية . وقد لبت هـــذه السكرتارية طلبي على الفور ، بهمة أشكرها عليهـــا ، وارسلت الي مجموعة كبيرة من

نشرات الحزب الدورية وغير الدورية ، وفسحت بذلك امامي مجالاً واسعاً ، لدرس مبادىء الحزب وتعاليمه دراسة تفصيلية .

*

ان هذه الدراسة أيدت الرأي الذي كنت توصلت اليه قبلاً .

وفضلاً عن ذلك ، انها أطلعتني على السبب الاصلي الذي كان يدفع زعيم الحزب الى التحامل على « فكرة العروبة » ، ودعوة « القومية العربية » تحاملاً عنيفاً .

وقد علمت ان الدافع الاصلي لذلك كان إساءة فهم المعنى المقصود من كلمة « العروبة » ، ومن تعبير « القومية العربية » .

لاني لاحظت بكل وضوح ، ان فكرة العروبة كانت تختلط في ذهن انطون سعادة مع معاني البداوة والصحراوية من ناحية ، ومع الحزبية المحمدية من ناحية اخرى . قد توّهم الرجل ، ان فكرة « الوحدة العربية » ما هي الا قناع يتقنع به دعاة الطائفية الاسلامية . ولذلك اخذ يحمل عليها ، كما كان يحمل على الطائفية بوجه عام .

وأميل الى الظن بان اول من صادفهم وخالطهم من دعاة العروبة وحملة الفكرة العربية كانوا من المسلمين ؛ وربما كانوا من الرجعيين والمذبذبين . ولذلك توهم ان كل دعاة العروبة طائفيون متسترون او متقنعون .

هذه هي « خميرة الضلال » التي عملت عملها في مشاعر زعيم الحزب ، وافسدت عليه تفكيره العلمي والاجتماعي والسياسي . هذا هو الخطأ الاساسي الذي جعله ينحرف عن جادة الصواب

انحرافاً كبيراً ، ويخالف كثيراً من الحقائق العلمية مخالفة صريحة ، حتى يناقض نفسه بنفسه أحياناً .

ان الأبحاث التالية، ستبرهن على كل ما قلته آنفاً برهنة قاطعة.

*

هـــذا ، واذا أردت ان الخص رأيي في انطون سعاده وفي حزبه — بعد هذه الدراسة المستفيضة — قلت ، بدون تردد :

لا يسعني الا ان اعلن إعجابي بنشاط الرجل واندفاعـــه ، وتحبيذي لمعظم المبادىء الاصلاحية التي يذكرها في تعاليمه ؛ كما لا يسعني الا ان اقدر سعيه وراء دعم آرائـه السياسية والاجتماعية بنظريات علمية . غير اني آسف كل الاسف على « خميرة الضلال » التي استولت على ذهنه ، وابعدته في كثير من المواقف والامور عن مناحي الابحاث العلمية ، وحجبت عن انظـــاره كثيراً من الحقائق الاجتماعية .

وكل ما اتمنـاه الآن من مريدي انطون سعادة ، ومعتنقي تعاليمه ، هو : أن لا يقفوا جامدين في المـكان الذي كان وصل اليه زعيمهم ؛ ولا يبقوا متمسكين بالمواقف التي وقف عندهـا هو ، بتأثـير خميرة الضلال التي ذكرتها آنفاً . بـــل يواصلوا «التطور» الذي كان قد بدأه ، وذلك بالتباعد عن «مواطن الخطأ» التي انزلق اليها مؤسس الحزب وبالتخلص مـــن آثار « الخميرة الفاسدة » التي ذكرتها آنفاً .

واري انه يترتب عليهم ان يقتدوا بزعيمهم الراحل في روح النشاط والتنظيم الذي امتاز بـــه ، دون ان يستمروا في السير

وراء خطاه ، فيستنفدوا قواهم في تأييد الاخطاء التي وقع فيها .

اني انشر هذه الابحاث الانتقادية املاً في مساعدة مريديه على التطور والتقدم، في سبيل خدمة البلاد العربية، ونهضة الامة العربية.

تنبيه

ارى من المفيد ان اذكر هنا ، الكتب الاساسية التي استندت اليها ، في ابحاثي عن آراء سعادة ، العلمية والاجتماعية والسياسية :

اولاً — كتاب «نشوء الامم» الذي ألفه ونشره لبيان « كيفية نشوء الامم وتعريف الأمة » .

ثانياً — الحلقة الثامنة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية ، التي جمعت طائفة من مقالاته ومحاضراته ، تحت عنوان « تعاليم وشروح في العقيدة القومية الاجتماعية » .

ثالثاً — الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث المذكورة، التي جمعت طائفة من المقالات تحت هذا العنوان : « حاربنا العروبة الوهمية ، لنقيم العروبة الواقعية » .

لاني رأيت ان هذه الكتب الثلاثة تمثل آراء زعيم الحزب ومؤسسه احسن التمثيل ؛ اذ يبين الكتاب الاول آراءه العلمية ، والثاني تعاليمه السياسية ، والثالث مواقفه من القضايا العربية .

هذا ، وسأقسم ابحاثي هنا ، الى قسمين اساسيين . أناقش في القسم الاول « الآراء العلمية » بوجه عام ، بقطع النظر عن نتائجها السياسية ؛ وسأتكلم في القسم الثاني عن « الآراء السياسية » بوجه خاص ، مع مناقشة « الحجج العلمية » المسرودة لتأييد تلك الآراء .

نقد الآراء العلمية

●

نظرات في كتاب نشوء الامم

ان الكتاب الوحيد الذي ألفه ونشره انطون سعادة في علم الاجتماع ، يحمل هذا العنوان : «نشوء الامم» .

وقد بنى سعادة آراءه السياسية على اساس النظريات الاجتماعية المسرودة في هذا الكتاب . ولذلك أشار الى ابحاثه المختلفة ، في مواضع عديدة من خطبه ومقالاته وتعاليمه الحزبية والسياسية .

فيجدر بنا ان نبدأ ابحاثنا ، بدرس هذا الكتاب :

انه يقع في ١٨٢ صفحة ، ويتضمن سبعة فصول ، تحمل العناوين التالية :

١ – نشوء النوع البشري
٢ – السلائل البشرية
٣ – الأرض وجغرافيتها
٤ – الاجتماع البشري
٥ – المجتمع وتطوره
٦ – نشوء الدولة وتطورها
٧ – الاثم الكنعاني

ويفهم من مقدمة الكتاب – المؤرخة بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٣٧ – ان المؤلف كتب الفصول الثلاثة الاولى ، قبل دخول السجن ، واتم الفصول الأربعة الباقية وهو في السجن ، «في اوائل مايو سنة ١٩٣٦ » .

كما يفهم منها : انه كان مصمماً على تأليف كتاب ثان متمم لهذا الكتاب ، يتكلم فيه عن « نشوء الامة السورية » بوجه خاص ؛ وكان قد وضع الملاحظات والمذكرات اللازمة لمؤلفه هذا ، الا ان هذه المذكرات جميعها « صودرت اثناء الاعتقالات الثانية » ؛ فلم تسمح له ظروفه المختلفة – بعد ذلك – بانجاز تاليفه واخراجه الى عالم الوجود .

فانحصر التأليف العلمي الوحيد الذي يحمل اسم انطون سعادة ، بهذا الكتاب الاول في « نشوء الامم » .

ويقول المؤلف في المقدمة التي صدّره بها ، انه « كتاب اجتماعي علمي بحت ، تجنبت فيه التاويلات والاستنتاجات النظرية ، وسائر فروع الفلسفة ، ما وجدت الى ذلك سبيلا . وقد اسندت حقائقه الى مصادرها الموثوقة ، واجتهدت الاجتهاد الكلي في الوقوف على احدث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الاجتماعية ، وتمنع من اجراء الأحكام الاعتباطية عليها » .

لقد طبع الكتاب ، للمرة الاولى ، في بيروت سنة ١٩٣٨ ؛ واعيد طبعه في دمشق سنة ١٩٥١ . وقد كتب على غلاف الطبعة الجديدة ، انها « منقحة بقلم المؤلف » .

*

اني كنت طالعت هذا الكتاب ، قبل نحو ثماني سنوات ، مطالعة اعتيادية غير اني اعدت مطالعته اخيراً مطالعة تدقيقية . ولم اهمل القيام بمقارنة طبعته الجديدة بطبعته القديمة ، للاطلاع على التطور الذي حصل في آراء الرجل ، خلال الفترة التي مضت بين تاليف الكتاب وبين تنقيحه – اي بين ١٩٣٦ وبين ١٩٤٨ .

اني ادوّن – فيما يلي – ملاحظاتي على كتاب (نشوء الامم) بعد الدرس الدقيق الذي قمت به هذه الأيام .

*

لقد لاحظت في ابحاث الكتاب بعض النقائص الاساسية ، التي لا تتفق مع « مكتسبات علم الاجتماع » في الحالة الحاضرة . ولاح لي ان المصدر الأصلي لهذه النقائص ، يعود الى الامور التالية :

(ا) – ان المؤلف لا يقدر التقدير الكافي اهمية البيئة المعنوية والاجتماعية ؛ ويغالي في تاثير البيئة الطبيعية والجغرافية . ولاينتبه الى الفروق التي تميز ما يسمى باسم (المناطق التاريخية) عما يسمى باسم (المناطق الجغرافية) .

(ب) – انه لا يميز تمييزاً صريحاً بين الوراثة الطبيعية والوراثة الاجتماعية ؛ ولا يلاحظ ان امتياز الانسان على الحيوان – واستمراره في التقدم الفكري والحضاري على الدوام – انما يستند الى هذا النوع الاخير من الوراثة ، الى ما يسمونه « الوراثة الاجتماعية » .

(ج) – انه لا ينتبه الانتباه اللازم ، الى الفرق بين الامة والدولة ، وكثيراً ما يخلط بينهما في أبحاثه المختلفة .

ولا حاجة الى القول : ان هذه النقائص الأساسية ، كثيراً

ما تشوش الابحاث ، وتولد اخطاء كبيرة ، وتؤدي أحياناً الى مخالفة أثبت الحقائق الاجتماعية .

اني لن اتوسع هنا في شرح هذه النقائص ، وتعداد هذه الأخطاء كلها ، بل سأحصر بحثي في القضيتين التاليتين :

أولاً : تأثير الطبيعة في سير التاريخ ونشوء الامم .

ثانياً : دور اللغة في حياة الامم ، ونشأة الدول .

وذلك لتعلّق هاتين القضيتين بالسياسة التي يدعو اليها المؤلف في تعاليم الحزب الذي أسسه ، تعلقاً شديداً .

تأثير الأرض والبيئة الجغرافية
في سير التاريخ ونشوء الامم

يغالي المؤلف في أمر تأثير البيئة الجغرافية في حياة الامم ، ودور الأرض في توجيه الوقائع التاريخية مغالاة شديدة .

انه يتكلم عن ذلك في فصل خاص ؛ ثم يعود اليه مرات عديدة ، في فصول مختلفة . ويتبنى كثيراً من الآراء التي ثبت بطلانها ، بالأبحاث العلمية التي حامت حول هذه القضية .

في الواقع ، انه لا يغفل عن ذكر النظرية الصحيحة في هذا المضمار : انه يدرك « ان تأثير الطبيعة يكون كبيراً في الاقوام الابتدائية ، ولكنه يضعف كثيراً في الاقوام المتمدينة ؛ ويسجل في مواضع مختلفة من كتابه الحقائق التالية :

« تأثير البيئة ليس قوياً في ظروف الاستقرار الحالي ، ولتوفر وسائل التحوط » (ص ٣٧) .

« ان التاريخ غير مكتوب في طبيعة الأرض » (ص ٤٣) .
« ان الأرض تقدم الممكنات ، لا الضروريات والحتميات » .
(ص ١١٩) .

« ان التاريخ ، غير مكتوب على الأديم . فهو غير حتمي . »

ولكنه يذكر هذه الحقائق ذكراً عابراً — ويمر بها مروراً سريعاً — دون ان يقدر النتائج المنطقية التي تترتب على التسليم بها . بل يبقى متمسكاً بالآراء والنظريات التي كانت شائعة قبل ان تتوصل الابحاث العلمية الى اظهار هذه الحقائق الأساسية . كما انه عندما يقدم على تعريف الامة ، ينسى هذه الحقائق تماماً ، ويندفع وراء آراء مخالفة لها مخالفة صريحة ؛ حتى انه في بعض الابحاث ينزلق الى اودية التناقض ايضاً .

اني أذكر فيما يلي نموذجاً للآراء المتناقضة ، وعدة نماذج للأخطاء الأساسية ، المسطورة في الكتاب حول هذه القضية .

*

في الفصل المعنون « الأرض وجغرافيتها » يتكلم المؤلف عن تأثير العوامل الجغرافية في الاحوال البشرية ؛ ويستشهد على ذلك بتأثير جبال الألب في سير الحروب البونية الرومانية ، حيث يقول :

« لولا جبال الآلب الفاصلة بين بلاد الجلالقة (فرنسا) وايطاليا ، لما كان اصاب جيش هاني بعل (هاني بال) ، اعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الامم ، ما اصابه من التشتت والضعف ، حين زحف على رومة . ولولا هذه الجبال نفسها لما وجد اخوه

الباسل ، حسدرو بعل نفسه في ذلك المأزق الحرج الذي انتهى بقتله وتقرير مصير قرطاجنة (ص ٤٢) .

يفهم من هـذه العبارات ، ان المؤلف يعلـل انتهاء الحروب البونية الثانية بالفشل – بوجود جبال الآلب القائمـة بين فرنسا وبين ايطاليا .

ان هذا التعليل كان يمكن ان يعتبر مقبولاً ووجيهاً ، لو كان هاني بعل قد عجز عن اجتياز جبال الألب ، فاضطر الى الوقوف وراءها . ولكننا نعلم ان هذا القائد العظيم نجح في اجتياز تلـك الجبال ، وواصل زحفه على رومة ، وانتصر على الجيوش الرومانية في اربع معارك كبيرة ، حتى انه وصل امام اسوار روما ، وألقى الرعب في نفوس الرومان .

واما ما حدث بعد ذلك ، فلا يجوز – والحالة هـذه – ان يعزى الى تأثير تلك الجبال ، بطبيعة الحال .

هذا ، ومن المعلوم ان الجبال المذكورة لم تحل دون استيلاء الرومان على ما وراءها ؛ لانهم اجتازوا تلك الجبال ، واستولوا على بلاد الجلالقة ، واستطاعوا ان « يرومنوها » ، ويطبعوهـا بطابع عميق من اللاتينية .

وبعكس ذلك ، ان البرابرة ايضاً استطاعوا ان يجتازوا جبال الآلب ، وان يستولوا على ايطاليـا وروما ، ويقضوا عـلى امبراطوريتها القضاء الاخير .

وفضلاً عن ذلك كله ، من المعلوم ان « اسرة سافوا » الـتي استطاعت ان تحقق وحدة ايطاليا في القرن الماضي ، كانت تحكم

بلاداً تقع على طرفي جبال الآلب .

ولهذه الاسباب كلها .. نستطيع ان نجزم بان تعليل فشل هاني بعل في القضاء على الامبراطورية الرومانية ، بتأثير جبال الآلب .. لا يمكن ان يعتبر تعليلاً معقولاً ، بوجه من الوجوه . واما اسباب هذا الفشل ، فيجب ان يبحث عنها ، في احوال قرطاجة من ناحية ، وتنظيمات روما من ناحية أخرى .

*

ومن الغريب ان مؤلف الكتاب نفسه قد اهتدى الى هذه الأسباب الحقيقية ، وذكرها في موضع آخر من كتابه ، في فصل « المجتمع وتطوره » .

وقد كتب هناك ما يلي ، بنصه :

« ان المعضلة الاساسية التي كانت تواجهها قرطاجنة ، هي النزاع الشديد الصامت بين الطبقة القابضة على زمام السلطة وامبراطور الجيش . والحقيقة ان هذا النزاع كان السبب الرئيسي في خسارة الحرب الفينيقية الثانية مع رومة . ففي هذه الحرب الطاحنة التي وضع خطتها هاني بعل - اعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الامم - سلك مجلس قرطاجنة خطة غريبة تجاه هذا القائد القرطاجي العظيم : فقد اهتم هذا المجلس بارسال المدد الى الميدان الاسباني ، ولم يتخذ اي تدبير حاسم لايصال المدد الضروري للميدان الايطالي . » (ص ١٢١)

« ان هاني بعل كان يدرك جيداً ان الضربة القاضية التي يمكن احدى الدولتين المتنازعتين ان تنزلها بالاخرى يجب ان تكون في

مركزها . ولذلك زحف على رومة ، ذلك الزحف الرائع ، مجتازاً جبال الألب الشاهقة حتى بلغ اسوار رومة . وقد دب فيها الرعب على اثر معركة كني المخلدة نبوغ البطل السوري ، وهلع قلب شعبها لتناقـــل العبارة — « هاني بعل على الابواب » — ولكن مجلس قرطاجنة بقي غارقاً في دسائسه ضد القائد ، ذاهلاً عن المرمى البعيد الذي رمى اليه هاني بعل . » (ص ١٢٢) .

اذن — يقول لنا المؤلف هنا — ان مجلس قرطاجنة كان في نزاع شديد مع قائد الجيش ؛ وانه كان غارقاً في دسائسه ضد القائد العظيم ، ولذلك قصر في ارسال المدد الضروري للميدان الايطـالي كيداً به . ويعترف اعترافاً صريحاً بان « هذا النزاع كان السبب الرئيسي في خسارة الحرب الفينيقية الثانية مع رومة » .

هذه الحقيقة التي سجلها المؤلف هنـا بنفسه ، ألا تناقض الرأي الذي كان أبداه عن تأثير جبال الآلب في فشل هاني بعل وتقرير مصير قرطاجنة مناقضة صريحة ؟

وهنا ، يجدر بنا ان نتساءل : كيف لم ينتبه المؤلف الى هـذا التناقض الواضح الصريح ؟ لماذا لم يدحض نظرية تأثير جبال الألب بهذه الحقائق التاريخية التي سجلها هو بنفسه في فصل آخر من كتابه؟ كيف سوّغ لنفسه ان يعلل الحادثة الواحدة ، بعلتين متخالفتين ، في فصلين من كتاب واحد ؟

ان السبب في ذلك ، على ما ارى هو نزعـة المؤلف السياسية : انه بنى نظرياته السياسية على اساس اعتبار البيئة الجغرافية العامل الاصلي في نشوء الامم . ومن البديهي ان تعليل فشل هاني بعـل

وسقوط قرطاجنة بتأثير جبال الآلب ، يلائم هذه النظرة السياسية كل الملاءمة ؛ ولذلك تمسّك بهذا التعليل ، دون ان يلاحظ انه منقوض ومردود بالحقائق التاريخية التي ذكرها هو بنفسه في فصل آخر من كتابه .

ان هذا التناقض الذي تورط فيه انطون سعادة ، يذكرني ما كان قاله ابن خلدون عندما تكلم عن التشيّعات للآراء والمذاهب ، في مقدمته المشهورة « ان النفس ، اذا كانت في حالة الاعتدال في قبول الخبر ، اعطته حقه من التمحيص والنظر ، حتى تتبين صدقه من كذبه. واذا خامرها تشيع لرأي ونحلة ، قبلت ما يوافقها من الاخبار ، لأول وهلة . وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص » .

افلا يحق لي ان أقول : ان الفكرة السياسية التي رسخت في ذهن سعادة ، كانت بمثابة الغشاوة التي غطت عين بصيرته في هذه القضية ، فحالت دون ادراكه الحقيقة ، على الرغم من وضوحها التام؟

*

وفي آخر فصل « الارض وجغرافيتها » ، يتكلم المؤلف عن البيئة وشخصية الجماعة ؛ ويقول : البيئة اهم عامل في تكوين شخصية الجماعة (ص ٤٤) وان شخصيات الجماعات « مرتبطة بالارض التي تملكها ارتباطاً وثيقاً . بل قوام شخصياتها البيئة – الوطن » (ص ٤٥) ويحاول البرهنة على ذلك بتأثير الامتلاك في الاشخاص ، فيقول ما يلي :

« ان تأثير امتلاك ارض او عقار في شخصية الممتلك شديد

جداً . بل ان الارض او العقار جزء من شخصيته. اذ لولاه لكانت طريقة معاشه ومرتبته ونوع حياته على غير ما تكون عليه مع هذا الجزء . واذا استمر العقار في العائلة ، بحكم الوراثة ، صار جزءاً من شخصية العائلة ، به يثبت مركزها ويحفظ مقامها . ومن هـذا نستنتج ان الملك قد يكون اهمّ ما في شخص المالك، بل اهم منه ؛ لان الشخص زائل ، والملك هو الباقي على التوارث . فاذا كان رجل يملك ارضاً زراعيـة مثلاً تكفيه وعائلته ، كانت شخصيته ورتبته الاجتماعيـة موقوفتين على ما يملك ، حتى اذا زال من يديه تغيرت شخصيته ورتبته . (٤٤) . هكذا مثـلاً حدث لامراء الروس حين جردتهم الثورة البلشفية من املاكهم ، فخرجوا الى العالم سائقي سيارات وخدماً ، بعد ان كانوا امراء » .

« وهكذا الجماعات : شخصياتها مرتبطة بالارض التي تملكهـا ارتباطاً وثيقاً » (ص ٤٥) .

وهنا يقع المؤلف في خطأ فاحش جداً ، اذ يعتبر امر الملكية بمثابة قضية جغرافية ، في حين انها قضية اجتماعية بحتة ، تتبع النظم الاجتماعية ، لا الاحوال الطبيعية .

هذه القطعة من الارض قد تكون ملكاً لشخص او لشخص آخر ، او لجماعة من الناس ، او لاسرة ؛ قد تكون موقوفة لامر من الامور الخيرية ، او ملكاً مشاعاً لقرية ؛ وقد تكون مجزأة بين عدة اشخاص ؛ او ملكاً لمؤسسة من المؤسسات العامة ، كالبلدية او الدولة . وقد تنتقل ملكيتها من شخص الى اخر ، او من جماعة الى جماعة ، او من شخص الى جمـاعة ، او من جماعة الى شخص ؛

وذلك عن طريق البيع والشراء ، او التوارث ، او من جراء تغيير النظم والقوانين المتعلقة بالملكية . بديهي ان كل ذلك ، مما لا يتعلق بالارض نفسها . فمن الخطأ الفادح ان تعتبر قضية الملكية قضية ارض وطبيعة . فان الملكية من الاوصاف الطارئة على الارض ، من جراء الاعتبارات والتشكيلات الاجتماعية .

هذا ، ومن المعلوم ان الانسان قد يملك ارضاً وعقاراً ، ومع هذا يبقى بعيداً عنها ، وقد يصبح مالكاً للارض او للعقار ، دون ان يراه بعينه طول حياته .

وفضلاً عن ذلك، لا حاجة الى القول بان النقود والاسهم المالية التي يملكها الاشخاص ،تعمل عملاً مماثلاً لعمل الاراضي والعقارات .

ولهذه الاسباب كلها استطيع ان اقول،بكل جزم وتاكيد : ان اعتبار الملكية قضية جغرافية ،وتشبيه الاملاك بالبيئة الطبيعية، والاستدلال من ذلك على ان شخصية الجماعة مرتبطة بالارض التي تملكها ، والقول بان قوام شخصية الجماعة ، هو البيئة .. يخالف اثبت واوضح حقائق علم الاجتماع .

ولا اشك في ان المؤلف قد انجرف هنا ايضاً نحو هذه الاخطاء، تحت تاثير نزعته السياسية ، التي ترمي الى اعطاء المكانة الاولى في القومية الى البيئة الجغرافية .

*

يعزو مؤلف الكتاب الى الأرض أهمية كبرى في امر « تعريف الامة وتحديدها » ايضاً .

إنه يتبنى قول فون ايرين ، في « ان الارض هو القوم »

(ص ١٦٥) ؛ ويجد قول رينان في (ان الامة تتكوّن من زواج جماعة من الناس وبقعة ارضية » (ص ١٦١) . ويقول : « ان الامة تجد اساسها قبل كل شيء في وحـــدة ارضية معينة » (ص ١٦٦) كما يقول « كل امة تنشأ بعامل ارتباط جماعـــة من الناس (مهما كانت) ببقعة من الارض (ص ١٧٠) ويزعم « ان البيئة الجغرافية ضرورية لحياة المجتمع ضرورة الارض للحيـــاة . واي متحد اخذناه وجدناه محدداً بالمساحة او البيئة » (ص ٢٦٣).

ويقول في آخر الأمر : « لا امة على الاطلاق ، بدون قطر معين محدود » (ص ١٦٦) .

اني اجد في مجموع هذه الاقوال والمزاعم مثـــلاً واضحاً على عدم تمييز المؤلف بين الدولة وبين الامة ، التمييز العلمي الصحيح .

لا شك في ان وجود « قطر معين محدود » ضروري لقيـــام الدولة ؛ ولكنه لم يكن ضرورياً لوجود الامـــة . فالامة قد تكون مبعثرة على اقطار مختلفة؛ وقد تعيش مع غيرها من الامم، في بقعة ارضية واحدة .

فالقول بانه « لا امة على الاطلاق دون قطر معين محدود » ، لا يتفق مع الحقائق الراهنة بوجه من الوجوه .

يشير المؤلف في هذا الصدد ، الى ما ذهب اليـــه (اسرائيل زانفيل) ، عندما قال « ان الشعب اليهودي تمكن من الاحتفاظ بنفسه بدون بلاد » ؛ ولكنه يعتبر هـــذا القول من الاغلاط الاجتماعية الفاضحة ؛ ويحاول البرهنـة على صحة زعمه هـــذا ، بالايضاحات التالية :

« ان اليهود احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني . وقد اكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلتبس بالعصبية القومية الا على البسطاء المتغرضين . اليهود ليسوا امة اكثر مما هم سلالة . (وهم ليسوا سلالة مطلقاً) . انهم كنيس وثقافة . لا يمكننا ان نسمي اليهود امة ، اكثر مما يمكننا ان نسمي المسلمين امة ، والشيعة امة ، والاورثوذكس والكاثوليك امة ... الخ . ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها . » (ص١٦٦).

ولكن مؤلف الكتاب يقع في غلط فاحش جداً، عندما يقيس الديانة اليهودية بالديانة الاسلامية والديانة المسيحية ؛ انه لا ينتبه الى الفرق العظيم الذي يميز الاديان العالمية عن الاديان القومية ، كما يظهر ذلك بوضوح تام مما كتبه في بحث الدين والامة ، حيث قال: « الدين في اصله لا قومي ومناف للقومية » (ص ١٧٤) .

واما الحقيقة في هذا الامر ، فهي غير ذلك تماماً ؛ فان الاديان تنقسم — من الوجهة الاجتماعية — الى نوعين أساسيين : الاديان العالمية التي تدعو جميع الناس الى اعتناقها ، وتفتح ابوابها الى جميع الذين يودون الانتساب اليها ؛ والاديان القومية ، التي تختص بامة واحدة ، فلا تدعو الناس الى اعتناقها ولا تفتح ابوابها لمن كان اجنبياً عنها ، الا ضمن قيود وشروط كثيرة .

ومن المعلوم ان الديانة اليهودية من النوع الثاني ، لا من النوع الاول .

هذا ، واذا تركنا امر اليهود جانباً ، وجدنا امثلة وادلة عديدة اخرى ، تدل على عدم صحة القول بان « لا امة على الاطلاق ، دون

قطر معين محدود » .

فان الارمن ، مثلاً ، مبعثرون في اقطار عديدة ؛ ومع هـذا لا يمكن لاحد ان يزعم بانهم ليسوا امة .

ثم اننا نجد في بعض الاقطار امماً متشابكة تشابكاً غريباً ؛ ربما كانت بلاد البالقان — ولاسيما القطر المعروف باسم ماكدونيا — من اشهر الامثلة على ذلك : كأن يلاحظ في منطقة واحدة ، قرى بلغارية ، مبثوثة بين قرى يونانية . واخرى آلبانية ؛ كما يلاحظ في قرية واحدة ، جماعات من البلغار ، مختلطين مع جماعات من اليونان ، والآلبان والاتراك ..

وكذلك الأمر في بعض المناطق من ترانسيلفانيا حيث يلاحظ تشابك وتداخل بين الرومان والهنغار .

ومن المعلوم ان قضايا الأقليات التي لعبت دوراً هاماً في السياسة الأوروبية ، منذ اوائل هذا القرن ، كلها ناتجة من تشابك الامم في بعض الأقطار من الارض .

ولذلك كله ، نستطيع ان نؤكد : ان القول بان « الامة تجد اساسها قبل كل شيء في وحدة ارضية معينة » لا ينطبق على حقائق الامور بوجه من الوجوه .

حول اللغة والقومية

بقدر ما يغالي مؤلف كتاب نشوء الامم في امر تأثير الارض في تكوين الامة ، يغالي كذلك في التقليل من شأن اللغة في هـذا المضمار .

ففي حين انه يخصص فصلاً كاملاً لقضية الارض ، ثم يعود اليها في صحائف عديدة ، في مواضع متنوعة .. في حين انه يهتم بالارض كل هذا الاهتمام .. فانه يعالج مسألة اللغة في صفحتين وبضعة اسطر ، فحسب .

هو يذكر ان منتشيني وإيوانوف يشتركان في اعتبار اللغة عنصراً اساسياً في تكوين الامة (ص ١٧١) ومع هـذا يزعم ان تحديد الامة باللغة من اكبر الاغلاط (ص ١٧٣) .

واما البراهين التي يسردها على رأيه هذا ، فهي في غاية الاقتضاب :

يقول اولاً : « ان اللغة وسيلة من وسائل قيام الاجتماع ، لا سبب من اسبابه . انها امر حادث بالاجتماع في الاصل ، لا ان الاجتماع امر حادث باللغة » (ص ١٧١) .

ان هذه المسألة تشبه – في نظري – مسألة «البيضة والدجاجة» المشهورة . وهي من المسائل العقيمة التي لا يمكن ان تنتج حكماً يستحق الوقوف عنده والاعتماد عليه .

ذلـك لان اللغة – في حقيقة الامر – هي ، من نتائج الحياة الاجتماعية ومن عواملها في وقت واحد : لو لم تكن اللغة لما تميزت الجماعات البشرية عن قطعان الماشية .

وفضلا عن ذلك ، فان اللغة لم تكن آلة التخاطب فحسب ، بل هي آلة التفكير ايضاً : لو لم تكن اللغة ، لما تقدم العقل البشري التقدم الذي يمتاز به عن سائر الحيوانات .

والمؤلف نفسه يعترف بان اللغة تحمل معها « التراث الادبي والثقافي » ؛ وهو يصرح بان « الامة ، من حيث هي متحد اجتماعي

ذو نوع من الحياة خاص به في بيئته ، لا بد لها من لغة واحدة تسهل الحياة الواحدة ، وتؤمن انتشار روحية واحدة ، تجمع آدابها وفنونها وعواملها النفسية واهدافها ومثلها العليا .» (ص ١٧١) .

ومع كل ذلك انه يتحفظ في التسليم بقول بلنتشلي المشهور : « متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته ، خسر قوميته » .

لانه يعلق على هذا القول بما يلي :

« لا يصح قول بلنتشلي المشار اليه الا في الاقوام الغافلة عن نفسها وعن وحدة اجتماعها . اما الاقوام المنتبهة ، الحية الوجدان القومي او الاجتماعي ، فيمكنها ان تقبل لغة جديدة ، ولا تفقد خصائصها القومية الاخرى . » (ص ١٧٢) .

انا اجد في هذه العبارات سلسلة محاكمات مغلوطة من اساسها ؛ لاني اعتقد « ان الاقوام المنتبهة الحية الوجدان القومي » حسب تعبير انطون سعادة — تتمسك بلغتها تمسكاً شديداً ، ولا تفرط فيها وتستبدل بها لغة اخرى ابداً . ان تغير اللغة في امة من الامم ، لا يمكن ان يحدث ويتم ، الا عندما تكون الامة « غافلة عن نفسها وعن وحدة اجتماعها » ؛ والا عندما يكون وجدانها القومي متخدراً او نائماً . وكل التاريخ يشهد ، ان اللغة القومية — لغة الامة ، لغة الام والبيت — هي آخر ما يخضع للسيطرة الاجنبية .

ثم اني استغرب كل الاستغراب ، كيف يزعم المؤلف « ان الامة قد تقبل لغة جديدة ، ومع ذلك لا تفقد خصائصها القومية الاخرى » ، بعد ان سلم ان اللغة تحمل معها تراث الامة « الأدب والثقافي » ، وبعد ان قال انها « تجمع آدابها وفنونها وعواملها النفسية ومثلها العليا » ؟

ولا ادري ماذا يبقى للامة من الخصائص القومية ، بعد ان تفقد لغتها ، وتفقد معها – بطبيعة الحال – تراثها الادبي والثقافي ، وعواملها النفسية واهدافها ومثلها العليا ؟

*

يحاول المؤلف تأييد رأيه في هذا المضمار بمثال ايرلندة؛ فيقول : « هذه ايرلندة . يعود اليها تنبهها القومي وعصبيتها بعد قرون من سيطرة اللغة الانجليزية . »(ص ١٧٢) .

ولكني – دون ان استرسل في بحث الاسباب والعوامل التي ساعدت على بقاء الايرلنديين متميزين عن حكامهم الانجليز – اسأل هذا السؤال البسيط : هل كانت اللغة الايرلندية اندرست تماماً، ام بقيت حية في حالة لغة عامية ؟

ان جواب هذا السؤال ، لا يترك مجالاً للاختلاف : ان اللغة الايرلندية كانت باقية في حالة لغة عامية؛ والحركة القومية الايرلندية، بذلت جهوداً جبارة لجعلها لغة الأدب والسياسة ايضاً . واللغة الرسمية في دولة ايرلندة الحرة الآن ، هي اللغة الايرلندية ، لا اللغة الانجليزية ...

هذا ، ويجب ان لا ننسى في هذا المقام ، ان كل الحركات القومية التي غيرت معالم خارطة اوروبا السياسية منذ قرن وحد تغييراً اساسياً ، قامت على اساس اللغات القومية . ان سلسلة طويلة من الانقلابات السياسية القومية ، من اتحاد ايطاليا ، واتحاد المانيا، الى اندراس السلطنة العثمانية والامبراطورية النمسوية، والى استقلال اليونان ، والبلغار ، والمنغار ، وقيام رومانيا ويوغوسلافيا

وتشيكوسلوفاكيا ... كلها كانت من نتائج اتحـــاد اللغات او اختلافها ، قبل كل شيء ، واكثر من كل شيء ... *

انا اعرف ان هناك من لا يسلم بهذه الحقيقة ، ويحاول تجريحها مستنداً الى مثال الدول القائمة في طرفي المحيط الاطلسي .

اذ كثيراً ما يقولون : اذا كانت اللغة هي الاساس الاول في بناء القومية فلماذا انفصلت الولايات المتحدة عن انجلترة ، وشعوب اميركا اللاتينية عن اسبانيا والبورتغال ؟

لقد اجبت عـــلى سؤال من هذا القبيل ، في محاضرة كنت القيها في نادي الوحدة العربية في القـاهرة . وارى ان انقل منهـا بعض الفقرات ، لتنوير هـــذه القضية ، وازالة الشكوك من الاذهان ** :

اولا : إن انفصال الولايات المتحدة الاميركية عن بريطانيـا العظمى تم سنة ١٧٧٦ . ويجب ان نتذكر انه في ذلك العهد ما كان يوجد على وجه الارض دولة قومية ابداً .

ونستطيع ان نقول : ان ما حدث في اوائل الربع الاخير من القرن الثامن عشر – قبل قيام مبدأ القوميات ، وقبل بدء تكوين الدول القومية – لايمكن ان يتخذ برهاناً على اية نظرية من نظريات القوميات .

ثانياً : ان اميركا مفصولة عن الجزر البريطانيـة بالبحر المحيط

---

* كتابي « محاضرات في نشوء الفكرة القومية » يشرح هـذه الوقائع التاريخية بتفصيلات وافية .

** آراء واحاديث في القومية العربية (ص ٥٣–٥٧)

الاطلسي العظيم .

وهذا الانفصال كان ذا خطورة خاصة قبل قرن، ولا سيما قبل قرن ونصف قرن . لأن المواصلات كانت تجري عندئـــذ بالسفن الشراعية . واسفار هذه السفن كانت تستغرق وقتاً طويلاً ، فضلاً عن انها كانت تتعرض الى اخطار جسيمة ، بسبب كثرة الزوابع والعواصف التي تحدث خلال مدة السفر الطويلة في ذلك البحر المحيط المكشوف، وكان من الطبيعي ان يلعب هـــذا الانفصال الجغرافي دوراً كبيراً في تقرير مصير المستعمرات الاميركية .

ثالثاً : ان اللغة الانجليزية لم تصبح اللغة البيتية عند جمـــاعات كبيرة جداً من الاميركيين ، الا في وقت حديث نسبياً . لان جميع سكان الولايات المتحدة الاميركية – تقريباً – كانوا من المهاجرين . وهؤلاء المهاجرون كانوا يؤمونها من مختلف الاقطار الاوروبية . وكان بينهم – فضلا عن الانجليز مئات الآلاف من الالمان ، والايرلنديين ، والطليان ، والسويديين ، والفرنسيين . وكان هؤلاء يحملون معهم الى القارة الاميركية لغاتهم الاصلية . وما كانوا ينسون تلك اللغات – ويصبحون انجليزيي اللغة في بيوتهم – الا بعد مرور جيلين او ثلاثة على هجرتهم من بلادهم ...

ولذلك كله ، كان من الطبيعي ان لا تعمل اللغة الانجليزية في الولايات المتحدة الاميركية ، عمـــلا يشبه عمل اللغة الالمانية او الايطالية في القارة الاوروبية » .

ان ما قلته عندئذ عن الولايات المتحدة الاميركية، ينطبق تمام الانطباق على امريكا اللاتينية ايضاً .

بناء على كل ما تقدم ، استطيع ان اؤكد بان انطون سعادة يخالف حقائق التاريخ والاجتماع ، عندما يعظم شأن الارض والبيئة الطبيعية في تكوين الامة ، ويقلل من شأن اللغة في هذا التكوين .

ولعل هذا الغلط يظهر بوضوح اعظم في احد المزاعم التي سطرها في الفصل الاخير من كتابه :

يقول المؤلف – بصيغة التأكيد ان « الذي ينتقل من قطره الى قطر آخر ، يدرك انه قد اصبح في متحد جديد ، سواء اكان يعرف ما هي لغة اهله ام لا يعرف ، سواء اكان يجهل اخلاقهم ام لا يجهل .» (ص ١٥٤ – ١٥٥) .

انا لا ادري ماذا يقصد انطون سعادة بالضبط ، من تعبير « قطره » ؟ هل يقصد من ذلك اراضي الدولة التي ينتسب اليها ، ام يقصد اراضي الامة التي ينتمي اليها ؟ ولكني اجزم ، في كلتا الحالتين ، ان زعمه هذا يخالف الحقائق الراهنة مخالفة كلية :

فان المرء ، اذا انتقل من اراضي دولته الى اراضي دولة اخرى ، لا يدرك انه اصبح خارج بلاده ، الا اذا عرف ذلك قبلا ، او اذا شاهد معالم الدولة الاخرى ، من علامات حدود ، واعلام ، وموظفي امن وجمارك ..

واذا انتقل من اراضي امته الى اراضي امة اخرى ، لا يدرك هذا الانتقال ، الا اذا عرف ذلك قبلا ، او سمع لغة الناس .

وعلى كل حال ، فان القول بان انتقال المرء من قطر الى آخر يعلمه بانه اصبح في قطر جديد .. لا يتفق مع حقائق الامور واختبارات الحياة ، بوجه من الوجوه .

وأحسب ان الامثلة الكثيرة التي ذكرتها وشرحتها آنفا تكفي للبرهنة على ان كتاب « نشوء الامم » بعيد عن ان يكون كتاباً علمياً اجتماعياً بحتاً، كما انه بعيد جداً عن ان يعكس «احدث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الاجتماعية ،وتمنع من اجراء الأحكام الاعتباطية عليها» كما زعم المؤلف في المقدمة التي صدر بها الكتاب .

ومع هذا ، قبل ان اختم هذا البحث ، الانتقادي ، اود ان اقول كلمة حول عبارتين من العبارات التي قرأتها في آخر الكتاب:

يقول المؤلف « ان الوطن وبرّيته حيث فتح المرء عينيه للنور وورث مزاج الطبيعة وتعلقت حياته باسبابها هما اقوى عناصر هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية التي هي القومية . » (ص ١٨١) .

ولكن تعريف الوطن وبرّيته بالمحل الذي يفتح المرء عينيه الى النور ، تعريف عامي ، بعيد عن الانطباق على المعنى المفهوم من « الوطن » في العصر الحاضر . الوطن ، لا يعني مسقط الراس ؛ وهو اوسع بكثير من البقعة الارضية التي يفتح المرء فيها عينيه الى النور؛ انه يشمل كثيراً من البقاع التي لا تقع على جميعها اعين معظم المواطنين ، طوال حياتهم ...

ثم يقول المؤلف: « القومية ، هي الروحية الواحدة ، او الشعور الواحد المنبثق من الامة ، من وحدة الحياة في مجرى الزمان »

ولكن .. اللغة الم تكن اهم وسيلة واهم ظاهرة في وحدة الحياة ؟ ومجرى الزمان ، هل يتجلى في شيء غير التاريخ؟ افلا يعني ذلك : ان اهم عناصر القومية هي : اللغة والتاريخ ؟ . *

*راجع فصل «عوامل القومية» في كتابي «آراء واحاديث في الوطنية والقومية»

حول الآراء العلمية

•

نظرات في الخطب والمقالات

بعد الانتهاء من نقد كتاب « نشوء الامم » ، يجدر بي أن ألقي نظرة عجلى على الآراء العلمية المسرودة في سائر مقالات انطون سعادة ، وخطبه ايضاً .

ان انتقاداتي للكتاب المذكور ، اظهرت ان الآراء المسرودة فيه كانت بعيدة عن « الدقة العلمية » . فيجب ان لا نستغرب – والحالة هذه – اذا ظهر لنا المؤلف في بعض الاقسام من كتاباته الاخرى اكثر تباعداً عن مناحي البحث العلمي والدقة العلمية ..

اني سأذكر فيما يلي بعض الامثلة على هذا التباعد :

*

في احدى المحاضرات التي القاها انطون سعادة بغية شرح تعاليم حزبه ، قال ما نصه :

« امبراطورية الهيكسوس ، هي دولة سوريّة ، شيدت الأهرام وأنشأت أبا الهول ؛ فهي آثار الدولة السورية والسلطان السوري في مصر. » (تعاليم وشروح – ص ١١٢) .

في حين ان مراجعة أي كتاب من كتب «تاريخ مصر» تكفي

للتأكد من ان الاهرامات شيدت في عهد الاسرة الرابعة . والمدة التي مضت بين حكم اسرة بناة الاهرام وبين دخول الهيكسوس مصر ، كانت مدة طويلة ، توالت خلالها على حكم مصر ، سبع اسر مالكة . فالقول بان الأهرامات وابا الهول من آثار الهيكسوس، لهو قول ينم عن « خلط تاريخي » Anachronisme فادح ، يخالف أثبت وأوضح حقائق التاريخ مخالفة صريحة .

*

وقال انطون سعادة في احدى مقالاته ، ما نصه :

« ان الفتح الحربي وتغيير لغة قوم ودينهم بواسطة الفتح ، لا يلغيان وجود الامة المغلوبة. فقد افتتح النورمان انكلترة وسيطروا عليها ، وغيروا لغتها الجرمانية وصيّروها لاتينية وبقيت الامة الانكليزية . » (الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث. ص ١٨) .

ان زعم سعادة بان اللغة الانجليزية اصبحت لاتينية ، لهو من المزاعم الاعتباطية التي لا يستطيع ان يقرها عليه احد . واما قوله، « وبقيت الامة الانجليزية » فيخالف الواقع التاريخي مخالفة تامة .

فان ما نسميه الآن باسم « الامة الانجليزية » ما كانت موجودة عندئذ؛ انها تكوّنت بعد ذلك، نتيجة لسلسلة طويلة من التطورات التاريخية .

يذهب سعادة الى زعم مماثل لهذا الزعم في أمر فرنسا واسبانيا، وايطاليا ورومانيا أيضاً فيقول :

« لتَنَ الفتح الروماني العالم اللاتيني لغة ودِيناً ؛ ولكنه لم يستطع تلتينه قومياً وجعله امة واحدة . لانه لم يستطع توحيد البيئة

والمجتمع . فبقيت اسبانيا في طبيعتها وواقعها الاجتماعي ، وبقيت كذلك فرنسا وايطاليا ورومانيا . » (ص ١٨) .

انا لا ادري ما هو الواقع الاجتماعي الذي استمر – وبقي – في اسبانيا ، منذ الفتح الروماني ؟ واما الذي اعرفه جيداً فهو : ان اسبانيا الحالية تختلف عما كانت عليه قبل الفتح الروماني اختلافاً كلياً ، وكذلك عما كانت عليه في عهود الرومان ، والقوط والاسلام . ان ما نسميه الآن باسم « الامة الاسبانية » ما كانت موجودة قبل الفتح الروماني الذي يشير اليه صاحب المقال . انها ، تكوّنت – وتولدت – بعد ذلك ، نتيجة تطورات سياسية واجتماعية ، كثيرة وعميقة ومعقدة .

ان ما قلته الآن عن اسبانيا ، ينطبق على فرنسا ايضاً ، اذ من الامور الثابتة تاريخياً ، ان جنوب فرنسا الحالية مثلاً ، ظل مختلفاً عن شمالها اختلافاً كبيراً ، من جميع الوجوه السياسية والاجتماعية مدة طويلة من الزمن . وفرنسا لم تصبح وحدة جغرافية ، الا بعد تطورات سياسية واجتماعية استمرت قروناً عديدة . فالقول بان فرنسا بقيت كما هي بعد الفتح الروماني ، لا يتفق مع حقائق التاريخ ابداً .

وكذلك الأمر في رومانيا وفي سائر البلاد اللاتينية .

اني اعتقد ان هذه الاقوال والمزاعم ، كلها بعيدة عن الدقة العلمية ومخالفة للحقائق التاريخية ؛ انما قيلت لدعم فكرة سياسية ، بصورة اعتباطية .

*

ان أمثال هذه المزاعم الاعتباطية كثيرة في كتابات انطون سعادة. انها جرته غير مرة ، الى نقض نفسه بنفسه ايضاً .

وها اني أذكر فيما يلي ، مثالاً بارزاً على التناقض الصريح :

انه يشير – في احدى المحاضرات التي القاها لشرح تعاليم حزبه – الى « الفرق » الذي يظهر في التـــاريخ « بين كيفية فتح السوريين الكنعانيين – اي الفينيقيين – لافريكة واستعمالهم لها ، وكيفية فتح العرب واستعمالهم لها » .

« الكنعانيون (الفينيقيون) استعمروا الشاطيء الافريكي ؛ ولكنهم لم يساووا في الحقوق بينهم وبين شعوب شمال افريكة الذين اخضعوهم ، وكانوا من سلالة احط من سلالتهم . فاحتفظ السوريون الكنعانيون بسلامة فطرتهم ، وبقيت لهم النفسيـــة المتوارثة الموجودة في طريقة عنصرهم دون أي تعديل ؛ واحتفظوا بسيادتهم على الافريكيين ، وبقوتهم ؛ ولذلك امكن ان ينشئوا امبراطورية عظيمة ، كادت أن تسحق رومـة . ولم تسقط تلك الامبراطورية السورية الغربية – امبراطورية قرطاجنة – الا في حرب مع الرومان الذين هم قوم من سلالة نظير السلالة المتفوقة التي ينتمي اليها السوريون الكنعانيون .

أما العرب ، فعلى عكس السوريين ، فانهم اختلطوا باقوام من سلالات الزنوج فدخل في المزيج العربي عرق مـن سلالات منحطة ، ولولا ان العـدنانيين منهم ، الذين هم مـــن الارومة الكنعانية ،حافظوا – بعامل البداوة – على مجموع عرقي جيد الفطرة ، لما امكن العرب القيام بنهضة الفتح المحمدي . وقد

أجاز العرب ، بعامل الشرع الديني الامتزاج الدموي الواسع بلا فرق بين سلالات راقيـــة وسلالات منحطة . فلما افتتحوا شمال افريكة الذي كان افتتحه السوريون قبلهم ، أجازوا الاختـلاط الدموي اللامحدود مع الاقوام الافريكية ، فلم يمكن ان ينشأ من المزيج الذي تولد من اختلاط العرب والبربر وغيرهم من اهل المغرب أية نهضة يمكن ان تحدث تمدناً او عظمة سياسية أو فنيـة من اي وجه او شكل .. لم يمكن ان تنشأ من الفتح العربي قرطاجنة ثانية على الشاطىء الافريكي . لأن امـتزاج العرب ، ومن سار معهم من الافريكيين على أساس المساواة المدنية ، بعامل المبـدأ الديني المحمدي المساوي مساواة مدنية كلية بين المؤمنين ، أفقـد العرب من حيويتهم وأضاف الى حيوية الافريكيين شيئاً ، ولكن بين رفع الادنى وانزال الاعلى ، حصل متوسط أقرب الى الانحطاط منه الى الارتقاء » . (تعاليم وشروح ص ١٠٩ — ١١٠)

أنا لا أود هنا ، ان انتقد هذه الآراء ، واتحرى مبلغ موافقتها للحقائق الراهنة ، ولا ان اناقش — بوجه خاص — القول القائـل بان « العرب لم يوجدوا في الساحل الافريكي تمدناً و عظمة سياسية أو فنية من اي وجه وشكل » . انمـــا اود ان اسجل الآراء المسطورة هنا ، واقارنها مع ما جاء عنها في كتاب نشوء الامم :

في هـذه المحاضرة ، تكلم انطون سعادة عن السلالات الراقية والسلالات المنحطة ؛ وجزم بان الاختلاط مع السلالات المنحطة بوجه عام — ومع الزنوج بوجه خاص — يؤدي الى انحطاط السلالة ويحول دون قيام نهضة حقيقية ، وتقدم هام .

في حين انه – في كتاب نشوء الامم ، ادّعى عكس ذلك تماما : لقـــد فنّد هناك نظرية « تفاضل السلالات » تفنيداً قويا، ودحض دعايات نقاوة السلالة صراحةً .

وها اني انقل فيما يلي ،ما كتبه هناك حول هـــذا الموضوع:

« يجب ان لا يستنتج من المميزات النفسية او العقلية،ان هنالك مواهب عقلية سلالية خاصة مكتسبة من الشكل السلالي،ومقتصرة على السلالة ومتوارثة فيها . لأن الواقع قد برهن عـلى غير ذلك ، فحيث امتزجت السلالات قديماً ، كانت المدنية ارقى. وان اسبرطه كانت تمنع الاختلاط مع الاجانب محافظة عـــلى نقاوة دمها ، ولكنها كانت في المدنية دون اثينا ، الـــتي كثر فيها الاختلاط الدموي بمراحل. وان ارسطوطاليس كان يعدّ المكدونيين المحافظين برابرة . والاسكندر نفسه كان يرى انه يمكن ان يحسب الهلينيون انصاف آلهة ، بالنسبة الى رجاله المكدونيين .

« وان الادلة عـــلى عدم صحة القول بتفوق احدى السلالات الراقية في المواهب العقلية على الاخرى لمتوفرة. فاذا اخذنا الوجهة الفردية ، ودرسنا تسلسل بعض النوابغ ، وجدنا ان لا عبرة بنقاوة السلالة . فالشاعر الكبير اسكندر بوشكين ، المبدع في الادب الروسي القومي ، كان ذا عرق زنجي ؛ فقد كان لبطرس الاكبر قائد زنجي ، رفعته درجة ذكائه الى مرتبة مهندس المدفعية العام ، وصيرته ذا امـلاك واسعة وتزوج سيدة روسية من الأشراف . وحفيد هذا الزنجي هو بوشكين ، أعظم شعراء روسيا . والكاتبان الفرنسيان الشهيران دوماس الأب والأبن كانا ذا عرق زنجي .

« ان نظرية ضرورة نقاوة السلالة شرطاً للارتقاء العقلي وانشاء المدنيات واطراد التقدم قد اصبحت واهية جداً ، اذا لم نقل فاسدة بالمرة، تجاه المعلومات العلمية الحديثة ، خصوصاً ما تعلق منها بالمدنيات الاولى . فمدنية بابل التي يعدها العلماء او جمهورهم اولى المدنيات التي أثرت على سير التمدن العام نحو الارتقاء ، لم تكن عمل سلالة واحدة او قوم اصفياء ، كما كان الظن القديم ، بل نتيجة احتكاك واختلاط الشمريين بالساميين » (نشوء الامم ص ٣٦ – ٣٧) .

يلاحظ ان الآراء المسرودة هنا ، تناقض المزاعم المسطورة في المحاضرة التي ذكرتها آنفاً ، مناقضة تامة . في المحاضرة، تبنى الرجل نظرية تفاضل السلالات، وقال بضرورة نقاوة السلالة لتقدم الحضارة، في حين انه – في الكتاب – كان قرر ان هذه النظرية « واهية جداً » .

كيف ولماذا انجرف انطون سعادة الى مثل هذا التناقض الكبير؟

يلوح لي ان السبب في ذلك ، هو : تغلب نزعته السياسية على نزعته العلمية .

في الكتاب ، سجل حكم العلم الحديث في هذه النظرية ، دون ان يهدف – من وراء ذلك – الى غاية سياسية . واما في المحاضرة ، فانه كان يسير وراء هدف سياسي ، فتحيز الى النظرية التي تساعد على بلوغ الهدف المذكور ، دون ان يتذكر ، بانه كان فنّدها تفنيداً علمياً ، وقال عنها : انها واهية جداً ..

نقد الآراء السياسية

●

قبل الشروع في ابداء ملاحظاتي على آراء وتعاليم انطون سعادة السياسية ، أرى أن استعرض هـــذه الآراء ، استعراضاً مجرداً عن كل تعليق ، لمساعدة القارىء على تكوين فكرة صحيحة عن المبادىء التي قام عليها « الحزب السوري القومي » ، الذي سمي مؤخراً باسم « الحزب القومي الاجتماعي » .

ولذلك أدرج فيما يلي مبادىء الحزب الاساسية ، ومبادئه الاصلاحية ، مع غاية الحزب وخطته ؛ وذلك نقلاً عن الحلقة الثامنة من « سلسلة الأبحاث القومية الاجتماعية » .

هذه الحلقة معنونة بعنوان « تعاليم وشروح في العقيدة القومية الاجتماعية » . وهي مطبوعة في دمشق ، بتاريخ تموز ١٩٥٠ .

المبادىء الاساسية للحزب السوري القومي الاجتماعي

المبدأ الاول :

سورية للسوريين ؛ والسوريون امة تامة .

المبدأ الثاني :

القضية السورية ، هي قضية قومية قائمة بنفسها ، ومستقلة كل

الاستقلال عن أية قضية اخرى .

المبدأ الثالث :

القضية السورية هي قضية الامة السورية والوطن السوري .

المبدأ الرابع :

الأمة السورية ، هي وحدة الشعب السوري ، المتولدة من تاريخ طويل ، يرجع الى ما قبل الزمن التاريخي الجلي .

المبدأ الخامس :

الوطن السوري ، هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامة السورية . وهي ذات حدود جغرافية ، تميزها عن سواها ، تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي الى قناة السويس والبحر الاحمر في الجنوب شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة . ومن البحر السوري في الغرب ، شاملة جزيرة قبرص ، الى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق ، ويعبر عنها بلفظ عام : الهلال السوري الخصيب ، ونجمته جزيرة قبرص .

المبدأ السادس :

الامة السورية مجتمع واحد .

المبدأ السابع :

تستمد النهضة السورية القومية الاجتماعية روحها من مواهب الامة السورية وتاريخها الثقافي السياسي القومي .

المبدأ الثامن :

مصلحة سوريا فوق كل مصلحة .

يلاحظ ان أهم هـذه المبادىء الاساسية الثمانية – بالنسبة الى موضوع أبحاثنا – هو المبدأ الاول والمبدأ الخامس :

لأن المبدأ الاول ، يقول « السوريون امة تامة » ؛ ويعـني بذلك انهم ليسوا جزءاً من الامة العربية .

والمبدأ الخامس يحدد سوريا تحديداً يختلف عمـا هو معروف ومألوف اختلافاً كلياً .

المبادىء الاصلاحية

المبدأ الاول :

فصل الدين عن الدولة .

المبدأ الثاني :

منع رجال الدين من التدخل في شؤون السياسة والقضاء القوميين.

المبدأ الثالث :

ازالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب .

المبدأ الرابع :

الغاء الاقطاع ، وتنظيم الاقتصاد القومي على اساس الانتاج ، وانصاف العمال وصيانة مصلحة الامة والدولة .

المبدأ الخامس :

إعداد جيش قوي ، يكون ذا قيمة فعليـة في تقرير مصير الامة والوطن .

غاية الحزب وخطته

غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي : « بعث نهضة سورية

قومية اجتماعية ، تكفل تحقيق مبادئه ، وتعيد الى الامة السورية حيويتها وقوتها . وتنظيم حركة تؤدي الى استقلال الامة السورية استقلالاً تاماً ، وتثبيت سيادتها ، واقامة نظام جديد يؤمن مصالحها ويرفع مستوى حياتها ، والسعي لانشاء جبهة عربية .

*

هذه هي المبادىء الاساسية والمبادىء الاصلاحية ، والغاية والخطة المقررة للحزب السوري القومي الاجتماعي .

ان جميع هذه المبادىء والخطط مقرونة — في النشرة التي ذكرتها آنفاً — بشروح وافية .

ومع هذا ، رأى مؤسس الحزب — ان يتوسع في هذه الشروح ولذلك ألقى خمس محاضرات في الندوة الثقافية للحزب ، خلال شهري كانون الثاني وشباط من سنة ١٩٤٨ .

ومن المفيد ان ننقل من هذه الشروح ، بعض الاقسام المتعلقة بالعالم العربي من ناحية ، وبلبنان من ناحية اخرى ، لاعطاء فكرة اتم عن موقف انطون سعاده من القضيه العربية .

حول الجبهة العربية

يشرح انطون سعادة رأيه في أمر انشاء « الجبهة العربية » المنصوص عليها في « غاية الحزب وخطته » ، بالتفاصيل التالية :

إن ايجاد جبهة من امم العالم العربي ، تكون سداً منيعاً ضد المطامع الاجنبية ، وقوة يكون لها وزن كبير في اقرار المسائل السياسية الكبرى ، هو جزء متمم لغاية الحزب السياسية ، من

الوجهة الخارجية .

ان سورية هي احدى امم العالم العربي وانها هي الامة المؤهلة لقيادة العالم العربي ؛ وما النهضة القومية الاجتماعية الا البرهان القاطع على هذه الاهلية .

من البديهي أن الأمة التي لا عصبية لها تكفل القيام بنهضتها هي نفسها ، ليست بالامة التي ينتظر منها ان تنهض بالامم الاخرى وتقودها في مراقي الفلاح .

ان القومية السورية ، هي الطريقة العملية الوحيدة ، والشرط الاول لنهضة الامة السورية وتمكينها من الاشتغال في القضية العربية.

ان الذين يعتقدون ان الحزب القومي الاجتماعي يقول بتخلي سورية عن القضية العربية — لانهم لا يفهمون الفرق بين النهضة السورية القومية الاجتماعية والقضية العربية — ضلوا ضلالاً بعيداً ..

اننا لن نتنازل عن مركزنا في العالم العربي ، ولا عن رسالتنا الى العالم العربي . ولكننا نريد ، قبل كل شيء أن نكون أقوياء في انفسنا لنتمكن من تأدية رسالتنا . يجب على سورية ان تكون قوية بنهضتها القومية الاجتماعية لتستطيع القيام بمهمتها الكبرى .

ان الفكرة الشاملة التي أوجدها الحزب السوري القومي الاجتماعي تكوّن قضية مثالية في الحياة القومية . وليس يريد الحزب حصر هذه الفكرة السامية وحصر نتائجها الخطيرة في سورية ، بل هو يريد حملها الى الامم العربية الشقيقة ، عن طريق العمل الثقافي وتبادل الآراء والتفاهم ، لا عن طريق الغاء شخصيات الامم العربية وفرض النظريات عليها فرضاً . (تعاليم وشروح .

ص ٤٨ – ٤٩) .

حول المسألة اللبنانية

يشرح انطون سعادة موقفه من المسألة اللبنانية – خلال بحثه عن غاية الحزب – على الوجه التالي :

« اما الوجهة السياسية من غاية الحزب ، فمن الناحية الداخلية ، يعتبر الحزب ان المسألة اللبنانية نشأت لمبررات جزئيـــة ، كانت صحيحة حين كانت فكرة الدولة دينية . ولكن مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي قد اوجدت الاساس الاجتماعي الحقوقي القومي . وبتحقيق مبـــادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي تزول المبررات التي أوجدت انعزال لبنان » (تعاليم وشروح – ص ٥٠) .

ثم يوسع هذا البحث في مقالة خاصة ، حيث يقول ما يلي :

« لا جدال في ان السبب الموجب من الوجهة الداخليـــة ، لوجود الدولة اللبنانية ، هو المنازعات والحروب والمذابح الدينية التي حدثت بسبب الحزبيات الدينية ونفسية صراع الاديان ، وكان يكفي المسيحيين ان يطلبوا الاستقلال الاداري او كياناً سياسياً يقيهم شر الفتن الدينية من غير لجوء الى الانفصال النفسي الثقافي القومي . والواقع انه لم يخطر قط في بال أحد من قدماء السياسيين في لبنان ، حتى ولا في بال المؤسس الفعـــلي الأول والأكبر للانفصال اللبناني ، السيد شكري غانم ، الذي عاش مدة طويلة في فرنسا واكتسب الجنسية الفرنسية على ما هو معلوم وشائع وتنقل في عمله السياسي في فرنسة بين جمعية سورية طوراً وجمعية لبنانيـــة

تارة « أن يكون الانفصال اللبناني انفصالاً قومياً ، فقد استمر غانم يشعر بسوريته حتى بعد اعلان « لبنان الكبير » من قبل قائد جيش الاحتلال الفرنسي ، الجنرال غورو . ونشر من الكتابات ما يثبت بقاءه سورياً وحسبانه لبنان جزءاً مستقلاً من اجزاء سورية الطبيعية . (اقرأ مقدمته لكتاب الدكتور جورج سمنه ، « سوريا » المطبوع في باريس سنة ١٩٢١) ولكن المدارس الفرنسية وسياسة الاحتلال الفرنسي نحو ربع قرن أنشأت لنا طائفة من الشبان المتنكرين لسوريتهم ...

... اذا كان هنالك سبب موجب للاستقلال الاداري والسياسي ، فليس هنالك ما يوجب الانفصال عن القومية السورية التي هي نتيجة الواقع الطبيعي والاجتماعي السوري ، والتي ينادي بها اللبنانيون المستقلون عن الارادات الاجنبية . » (الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث ص ١٣ - ١٥) .

هذا ، وقال انطون سعادة، رداً على اسئلة احد الصحفيين مايلي:

« اننا نحترم الكيان اللبناني ... كياناً سياسياً برزت وجوده جزئياً ، اعتبارات دينية وسياسية ؛ ولكننا نعتقد ان اللبنانيين هم سوريون قومياً ، مندمجون في اصل الامة السورية ومزاجها وحياتها وتاريخها وثقافتها وبيئتها ودورتها الاجتماعية والاقتصادية. » (الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة الابحاث ص ٩١) .

هذا ، وأرى من المفيد أن أنقل فيما يلي بعض الفقرات ، من خطبة القاها انطون سعادة – في حفلة اول مارس سنة ١٩٤٠ - رداً على السوريين واللبنانيين الذين يناوئون حزبه .

مما قاله عن السوريين :

« ان هؤلاء السوريين المنادين « العروبة ! العروبة ! » ،لم يفعلوا شيئاً ، لا في سبيل امتهم ولا في سبيل العالم العربي . انهم يدعون باطلا ان الحزب السوري القومي الاجتماعي عدو العرب والعروبة. هم اعداء العرب والعروبة الحقيقيون ، بما يثيرونه ضد نهضة الامة السورية التي هي في مقدمة امم العالم العربي .

اننا نحن السوريين القوميين الاجتماعيين نوجه كل قوانا فيما يختص بالمسائل القومية الى اهداف امتنا نحن. اما فيما يختص بالمسائل المتعلقة بالعالم العربي كله تجاه غيره من العوالم ، فنحن هم العرب قبل غيرنا. نحن جبهة العالم العربي وصدره ، وسيفه ، وترسه ، ونحن حماة الضاد ومصدر الاشعاع الفكري في العالم العربي كله.» (الحلقة السابعة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية ص ٧٩) .

ومما قاله عن اللبنانيين :

« ان هؤلاء الانفصاليين الذين ينادون بملء اشداقهم «لبنان ! لبنان ! » هم اعداء لبنان واللبنانيين . فهم يرمون الى فصل لبنان عن الوطن الكامل ، المتلاحم الاجزاء ، وعزله عن العالم، ليكون فريسة هينة لغول الاستعمار الاجنبي . اذا كانت المسألة، مسألة قتل الشعب اللبناني من اجل فصل لبنان عن الوحدة الجغرافية للوطن السوري ، فهم ابطال هذه المجزرة . ولذلك اعلنهم اعداء لبنان واللبنانيين هم الذين يريدون افناء الشعب اللبناني من الوجود . اما متى كانت المسألة مسألة الشعب في لبنان وحياته،فنحن هم اللبنانيون الحقيقيون ، ولا لبنانيين غيرنا ... » (الحلقة السابعة ص ٨٠) .

مسالة حدود سوريا
ومفهوم القومية السورية

•

يتبين من تعاليم انطون سعادة وشروحها ، ان اس الأساس الذي قام عليه حزبه ، هو الدعوة الى التمسك بالقومية السورية ، واعتبار هذه القومية مستقلة عن القومية العربية تمام الاستقلال ، مع ادخال العراق في حدود سورية الطبيعية ، واعتبار العراقيين سوريين .

لا مجال للشك في ان هذه النظرة الغريبة الى مفهوم تعبير « سوريا الطبيعية » نشأت عن ظروف تفكير انطون سعادة الخاصة ونزعاته السياسية .

كل شيء يدل على ان مبادىء الحزب السوري القومي ، كانت تبلورت في ذهن انطون سعادة ، عندما كان في المهجر ، او عقب عودته الى ارض الوطن ، وذلك في الوقت الذي ما كان يعرف عن البلاد العربية شيئاً يذكر ، غير احوال سوريا ولبنان .

ولهذا السبب أسس حزبه على اساس محاربة الانعزالية والطائفية في سوريا ولبنان ، والدعوة الى توحيد هذين القطرين .

ولكنه ، عندما لاحظ الامور عن قرب ، وامعن النظر في

حقائق الاحوال ، ادرك الوشائج المتينة التي تربط السوريين بالعراقيين ، وفهم انه لا مجال منطقياً لفصل سوريا عن العراق ، من الوجهة القومية. وراح يزعم ان العراق جزء من سوريا الطبيعية، واخذ يطبق مبادىء حزبه على العراق ، دون ان يغير اسمه .

في الواقع ان انطون سعادة نفسه ينكر وقوع هذا التطور . لانه ، عندما وجه اليه احد الصحفيين سؤالا في هذا الموضوع ، صرح بانه كان بهذا الرأي ، منذ بداية الامر .

الا ان اني وجدت في طبعتي كتاب نشوء الامم ، دلائل قاطعة على ان انطون سعادة لم يكن مخلصاً في تصريحه هذا ؛ بل كان يحاول خداع مخاطبيه ، وربما كان يخادع نفسه أيضاً .

لاني ، عندما قارنت بين الطبعة الاولى ، وبين الطبعة الثانية المنقحة ، مقارنة دقيقة ، علمت ان التنقيحات كانت طفيفة ، لاتخرج عن نطاق تبديل بعض الكلمات وبعض العبارات . الا ان جميع هذه الكلمات والعبارات المنقحة كانت ذات أهمية خاصة ، تدل على حدوث تطور هام في تفكير المؤلف عن حدود سوريا ، ومفهوم القومية السورية .

فان ما سماه المؤلف في الطبعة الاولى « البقاع السامية » ، تحول الى « البقاع السورية » ؛ وما سماه عند التأليف « الدولة العباسية » ، تحول عند التنقيح الى « الدولة السورية العباسية » . كما ان اكد وكلده وبابل .. التي كانت تذكر في الطبعة الاولى منفصلة عن سوريا ومعطوفة عليها ، صارت في الطبعة الثانية جزءاً من سوريا ؛ والعراق الذي كان يذكر في الطبعة الاولى منفصلا

عن سوريا على الدوام ، ومخاصماً أو منافساً لها في بعض الأحيان ، صار يعتبر في الطبعة الثانيـة من اجزاء سوريا الطبيعية ، ويسمى لذلك باسم « سوريا الشرقية » .

ولازالة الشكوك التي قد تساور بعض الأذهان في هذا المضمار ، رأيت ان أدرج فيما يلي بعض النصوص الواردة في الطبعتين ، عن طريق المقارنة والمقابلة :

الطبعة الاولى

ابتدأ العصر المعدني بين **الشعوب السامية** وفي مصر
(ص ٧٨)

في هذا العصر وفي هذه **البقاع السامية** دخل المحراث
(ص ٧٩)

يبتدىء عصر الدولة التاريخية في الأقوام الثقافية الخارجة عن العصر الحجري الى العصر المعدني ، وهي **الاقوام السامية والحامية في بابل وارض كنعان ومصر .** (ص ١٠٥)

الشريعة الكنعانية ... لم تكن نقل عن شريعة حمورابي وهي تدل على الارتقاء السياسي العالي في جنوب سورية . (ص ١١٥)

الطبعة الثانية

ابتدأ العصر المعدني في **سوريا** وفي مصر .
(ص٧٨)

في هذا العصر وهذه **البقاع السورية** دخل المحراث .
(ص٧٩)

يبتدىء عصر الدولة التاريخية في الأقوام الثقافية الخارجة عن العصر الحجري الى العصر المعدني ، وهي **الاقوام السامية في سورية (بابل وارض كنعان) والحامية في مصر .** (ص١٠٥)

الشريعة الكنعانية.. تدل على الارتقاء السياسي العالي في جنوب سورية كما دلت الشريعة الحمورابية على الارتقاء السياسي العالي في شرق شمالي سورية . (ص١١٥)

الطبعة الاولى

هو ما لم تدرك **الدولة العباسية** اهميته.

(ص ١٣٤)

خذ القرايا المزرورة في سورية في التاريخ القديم ، تجـــد انها اصبحت كتلا مغناطيسية قوية **كدمشق وحمص** وحلب وبيروت والقدس .

(ص ١٦٥)

واما من الأقسام الجديبة **من بلاد الكلدان وشوشان وسيستان** وآسيا الوسطى . (ص ٤٣)

الدولة التاريخية الناشئة **في بابل وآشور وسورية ومصر .** (ص ١٠٦)

ولكنا نجد فرقـــاً ظاهراً في تفرّد النظامين : **الشنعاري والمصري .** (ص ١٠٩)

الطبعة الثانية

وهو ما لم تدرك **الدولة السورية العباسية** اهميته .

(ص ١٣٤)

خذ القرايا المزرورة في سورية في التاريخ القديم ، تجد انها اصبحت كتلا مغناطيسية قوية **كدمشق وبغداد (بابل) واورفه (أديسه) وحمص** وحلب وبيروت والقدس . (ص ١٦٥)

واما في الأوساط الجديبة **من شرق سورية (بلاد الكلدان وشوشان (وسيتان)** وآسيا الوسطى .

الدولة التاريخيه الناشئه **في سورية (بابل وآشور) وفي مصر .** (ص ١٠٦)

ولكنا نجد فرقاً ظاهراً في تفرّد النظـــامين : **السوري (الشنعاري) والمصري .** (ص ١٠٩)

الطبعة الاولى

كانت **دولة حمورابي** تمتاز على الدولة المصرية .
(ص ١١١)

(الدولة) جبلت الساميين والشمريين **في باب الله (بابل) ، وهي جبلت الشماليين بالجنوبيين في سورية** . (ص ١١٢)

ان سورية ايضاً ساهمت في الدولة البرية حيث ساعدت الظروف ، **كما في الشمال حيث ساعدت الامبراطورية الحيثية** . (ص ١١٣)

الطبعة الثانية

كانت **الدولة السورية في عهد حمورابي** تمتاز على الدولة المصرية . (ص ١١١)

(الدولة) جبلت الساميين والشمريين **في باب الله (بابل) في سورية الشرقية ، وهي جبلت الشماليين بالجنوبيين في سورية الغربية** . (ص ١١٢)

ان سورية ايضاً ساهمت في الدولة البرية حيث ساعدت الظروف ، **كما في الشرق حيث نشأت الامبراطورية الاكادية والامبراطورية الكلدانية ، وكما في الشمال حيث نشأت الامبراطورية الاشورية والحيثية** . (ص ١١٣)

الطبعة الاولى

لو كانت بغداد واقعة قرب (الرتبه*) أو بين هذه ودمشق ، أو لو كانت الصحراء بين سورية والعراق بلاداً عمرانية آهلة بالسكان ، اما كانت البيئة الموحدة ، وحدت المجتمع ايضاً . (ص ١٦٦)

* يقصد « الرطبة » .

لجأ الفرس الى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الأموية، وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين . **وتابع العراق الفرس لتصبح السيطرة فيه، وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تذوب في العراق وبلاد فارس .** (ص ١٧٥)

الطبعة الثانية

ان جفاف الاقليم بسبب محق الحرجات والغابات ، الذي ساعد الصحراء على اقتحام التخوم السورية الجنوبية ، وتجويف الصحراء السورية كاد يفصل بين الشام والعراق ، او بين شرق سورية وغربها ، لولا النهران السوريان العظيمان ، الفرات ودجلة اللذان حفظا استمرار العمران السوري وامكانية تكاثره وتوثيق الحياة القومية ضمنه . (ص ١٦٦)

لجأ الفرس الى الشيعة ليحدثوا انقساماً يتخلصون فيه من سيطرة سورية الاموية وليستعيدوا استقلالهم ونفوذهم الروحيين والماديين ، **لتصبح السيطرة فيهم . وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تخضع للفرس .** (ص ١٧٥)

اني أعتقد ان هذه النصوص المتقابلة لا تترك لزوماً لأي تعليق كان .

ومع هذا ، أود أن الفت الأنظار – بوجه خاص – الى النص الأخير : قال المؤلف – في الطبعة الاولى من كتابه « تمسكت سوريا بالسنّة، لكي لا تذوب في العراق وبلاد فارس»، مما يدل دلالة قاطعة على انه كان يعتبر العراق ، منفصلا عن سوريا، كما انه كان يزعم ان سوريا كانت معرضة لخطر الذوبان في العراق وبلاد فارس ، لو لم تتمسك بمذهب السنة . ولكنه – في الطبعة الثانية – بعد ان قطع شوطاً بعيداً في اعتبار العراق جزءاً من سوريا الطبيعية ، وبعد ان قال بوحدة سوريا والعراق من الوجهة القومية – رأى من الضروري ان يحذف كلمة العراق من هذا النص ، فقال : « تمسكت سوريا بالسنّة لكي لا تخضع للفرس » ...

*

واما فداحة الشذوذ الذي أظهره انطون سعادة باعتبار العراق جزءاً من أجزاء « سوريا الطبيعية » .. فتظهر بوضوح تام لكل من يرجع الى حقائق الجغرافية الطبيعية .

فاني أقول بكل جزم وتأكيد : ما من ملاحظة جغرافية ، تستطيع أن تربط اللاذقية – مثلاً – بالبصرة ، أو سهول حلب بأهوار العمارة ، أو الموصل بنابلس أو يافا .

ان الرابطة التي تربط هذه البلاد – التي اعتبرها سعادة نفسه قطراً واحداً – هي رابطة اللغة والتاريخ ، لا رابطة البيئة

والمناخ والطبيعة .

ولكن مؤسس الحزب السوري القومي ، لم يشأ ان يعترف بأهمية رابطة اللغة والتاريخ ؛ لأنه شعر بان الاعتراف بهذه الرابطة ، قد يضطره الى توسيع نطاق القومية التي يدعو اليها ، ولذلك راح يحاول أن يختلق روابط جغرافية ، لكي يبرر نزعته السياسية ، التي ترمي الى ربط العراق بسوريا دون ربطه بسائر البلاد العربية .

هذا هو ، في نظري ، السبب الأصلي في تخبط انطون سعادة هذا التخبط الغريب في أمر تقرير حدود سوريا الطبيعية ، وتحديد مفهوم القومية السورية .

ولذلك أقول : ان زعيم الحزب السوري القومي ، لم يستنبط نظرياته السياسية من الابحاث العلمية ؛ بل بعكس ذلك ، أراد أن يسخر الأبحاث العلمية لخدمة نزعاته السياسية .

مفهوم العروبة

ان الآراء السياسية التي سردها انطون سعادة في تعاليمه الأساسية عن البلاد العربية ، تبدو لأول وهلة : كخطة متوسطة بين نزعة الاقليمية الضيقة ، وبين الفكرة القومية الشاملة .

لأنه يصرح بوحدة سوريا والعراق – ولو كان ذلك تحت اسم سوريا – ، كما انه يعترف بوجوب قيام الدولة (السورية العراقية) بدور هام في تكوين جبهة قوية مع سائر بلاد العالم العربي .

ان فكرة الجبهة العربية – بعد الاعتراف بوحدة سور

والعراق – ، لا تترك هوة عميقة بين القائلين بالقومية السورية وبين القائلين بالقومية العربية ..

ذلك لان سير الوقائع وتوالي التجارب يكفلان ملء هـذه الهوة وردمها ، بمرور الزمان : اذ من البديهي ان الجبهة المنشودة لا يمكن ان تكون قوية ، ما لم يرتبط اعضاؤها بروابط محكمة . واما إحكام هذه الروابط ، فيستلزم ، تحويل هـذه الجبهة – ولو بصورة تدريجية – الى منظمة فعالة ، تسير قدماً نحو « الفدرالية ».

*

الا" ان كتابات انطون سعادة - ولا سيما الاخيرة منها لا تساير منطق التاريخ والاجتماع في هـذا المضمار . بل بعكس ذلك ، تسعى لتوسيع الهوة وتعميقها بشتى الصور والاساليب .

انه يتحامل على فكرة القومية العربية تحاملاً عنيفاً جـداً وينعت دعاتها بأسوأ النعوت واشنع الصفات :

يقول عن نفسية القومية العربية ، انها « مرض نفسي شوه العقل السوري والادراك والمنطق » (الحلقة الثانية عشرة – ص ٩)

ويتكلم عن تفكير « المصابين بمرض العروبة النفسي »(ص ٣٥) وعن « وهم الوحدة العربية » (ص ١٠) ، و « خيـال العروبة » و « هذيان الوحدة العربية » (ص ١٠ و ٤٠) .

وينعت العروبة والعقلية العروبية بـ « اللاقومية، والاتكالية ، واللاتعميرية » ، ويزعم ان هذه العقلية تستلزم المناداة بـ« لاحول ولا قوة الا بالله » (ص ٣٣).

وفضلاً عن ذلك كله يدعى : ان فكرة الوحدة العربية ، هي

التي اضاعت على سوريا كيليكيا ، واسكندرونة وفلسطين .

*

اني لا ارى لزوماً لاقامة الأدلة على خطل هذه المزاعم. ولكن ارى من المفيد ان ابحث عن مصدر هذه المزاعم الباطلة ، وان اكشف الستار عن دوافع هذا التحامل العنيف .

اني اعتقد ان اسباب ذلك كله ، تعود الى « سوء فهم » انطون سعادة للمعاني المقصودة من كلمات « العرب، والعروبة ، والقومية العربية » .

أولاً — انه يستعمل في كتاباته كلمتي العرب والعروبة ، بمعنى البدو والبداوة ؛ ولذلك ، يزعم ان الدعوة الى العروبة ، انما تعني العودة الى حياة البداوة ، والرجوع الى عيشة الصحراء .

ان الأدلة على ذلك كثيرة في كتاب نشوء الامم وفي سائر الكتابات. وفيما يلي بعض العبارات المسطورة في كتاب نشوء الامم:

* « في شرقنا الأدنى ، نرى العرب يسدون حاجاتهم المعاشية مباشرة او بما يشبه المباشرة ، كتناولهم لبن النوق والتقاطهم التمر ، وتربية الجمال ، اهم شؤونهم الاقتصادية . » (ص ٥٩).

* « من درسنا العرب الذين في جوارنا نرى الفرد لا يكون عندهم سوى وحدة عددية في القبيلة . » (ص ٥٩) .

* « العرب تجري حياتهم ضمن دوائر قبائلهم . ولهم مصالحهم الخاصة في الزواج والرحلة والغزو والسلب. » (ص ١٦٢) .

وفيما يلي بعض العبارات المسطورة في نشرة التعاليم والشروح :

* « لولا علو هذه الجبال (اي جبال لبنان) والأنهر المتدفقة

منها ، لكانت الصحراء عمت البلاد ، ولكنا تحولنا الى عرب (اي الى صحراويين — من العربة — الصحراء) (ص ١٣٠) .

* « ماذا نعني بكون الامة السورية احدى امم العالم العربي ، او احدى الامم العربية ؟ هـــل نعني ان السوريين هم جزء متمم للعرب (اهل العربة والصحراء) يشكلون معهم شعباً واحداً خاصاً يجب ان يرجع الى الأصل ؟» (ص ١١٣) .

* « العرب هم سكان العربـــة ، كما ان السوريين هم سكان سوريا . » (ص ١٠٠) .

اني اعتقد ان دلالة هذه العبارات صريحة الى اقصى حـــدود الصراحة .

ان مدلول كلمتي العرب والعروبة في ذهن انطون سعادة ، يرتبط ويختلط على الدوام مع مدلول البدو والبداوة والصحراوية.

ثانياً — يخلط انطون سعادة في كتاباته بين العروبة وبين الاسلامية ويعتبر فكرة القومية العربية ، ضرباً من « الحزبية المحمدية » .

اذ نراه يقول في احدى محاضراته ، ما نصه :

« يوجد عالم يدعى العالم العربي ، والسبب في دعوة هذا العالم كذلك ، سبب لغوي ديني في الاساس . فهنالك عالم عربي باللسان ، ويمكن ان نتدرج ونقول عالم عربي بالدين الذي يحمل كثيراً من بيئة العرب وحاجاتها ونفسياتها ، والذي هو اهم عامل يصل بين امم العالم العربي اللسان . » (ص ١١٣) .

كما نراه يقول ، في احدى مقالاته المنشورة في الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية ، ما يلي :

لبست الحزبية المحمدية – أقول المحمدية لا الاسلامية ، لأنني كما اعلنت سابقاً اعتبر الاسلام شاملاً المسيحيين واهل الحكمة ايضاً – في الرجعية الجديدة ، لباس « القومية العربية » ؛ وارتكزت على مرتكزين اساسيين ، هما اللغة العربية والدين المحمدي اللذان نشرهما الفتح العربي المحمدي » (ص ١٣) .

اني اعتقد ان دلالة هذه الفقرات واضحة كل الوضوح .

ان الأخطاء الفاحشة التي يقع فيها انطون سعادة ، في تحديد مدلول كلمات العرب والعروبة والقومية العربية ، لا تحتاج الى شرح طويل .

فان مدلول كلمه « عرب » لا يختص بالبدو وسكان الصحراء ، أو بسكان الجزيرة العربية . انه يشمل جميع الناطقين بالضاد ، من بدو وحضر ، ومن سكان المدن والأرياف والصحارى والجبال .

وفكرة القومية العربية ، لا تختص بالمسلمين وحدهم ، بل تشمل المسلمين والمسيحيين على السواء .

ومن المفيد ان انقل فيما يلي بعض الفقرات ، من القرارات التي اتخذها « المؤتمر الثقافي العربي الأول » الذي انعقد في بيت مري ، بلبنان ، صيف سنه ١٩٤٧ .

« ان العروبة لم تكن في الماضي ولا في الحاضر مقصورة على طائفة من الطوائف أو دين من الأديان . وان التعاون بين المواطنين العرب – على تفاوت أديانهم – كان قوياً في الماضي كما كان كذلك في النهضة العربية الحديثة – ولم يفرق اختلاف الأديان بين العرب ، الا في العصور التي سادها الحكم الأجنبي .

لهذا ينبغي العنـــاية ببث روح التضامن والتعاون بين مختلف الطوائف ، وإشعارهم بانهم اخـوة ، وان من واجبهم أن يضعوا الاهداف القومية فوق الاعتبارات الطائفية » .

ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد ، ان المؤتمر جمع عـدداً كبيراً من رجال التربية والتعليم من مختلف الاقطار العربيـة ، وكان بين اعضائه مسلمون ومسيحيون ، علمانيون وروحانيون .

واعتقد ان هذا القرار ، احسن رد على مزاعم انطون سعادة في هذا المضمار .

*

ان كل شيء يدل على ان سعادة شرع في تأسيس حزبه وتقرير مبادئه ، في الوقت الذي ما كان يعرف شيئاً يذكر عن احوال البلاد العربية ، ولا عن تاريخ العرب القديم والحديث .

لهذا السبب تورط في مثل هذه الاغلاط الفاحشة ، ولم يستطع ان يتخلص منها – فيما بعد – بسبب انجرافه في معامع النضال الحزبي ..

وهذه الاغلاط الاساسية ، كانت بمثابة « خميرة الضلال » التي افسدت عليه تفكيره ، كما اشرت الى ذلك قبلاً .

ومما يلفت النظر ، ان هذه الخميرة ظلت تعمل عملها حتى آخر أيام نضاله ، وجعلته يتخبط خبط عشواء في كثير من كتاباته .

واستطيع ان اجزم ، بان تخبطه هذا ، زاد وتفـاقم في السنة الاخيرة من حياته النضالية .

وربما كان موقفـــه من مسألة « الهلال الخصيب » من اغرب وابرز مظاهر هذا التخبط ، كما سيتضح من التفاصيل التالية :

مسالة الهلال الخصيب

الهلال الخصيب ... استعمل انطون سعادة هذه التسمية مرات عديدة ، في مقالاته وخطبه المختلفة ، حتى في تعاليمه الأساسية .

ظن ، في بادىء الأمر ، انهـــا من وضع العرب ، حيث قال: « لقد تنبه العرب في دقة ملاحظتهم السطحية » الى وحدة هذه البلاد الجغرافية « فسموها الهلال الخصيب » (تعاليم وشروح – ص٢٤).

وكرر ذلك مرات عديدة ، في مناسبات متنوعة . الا انـه اطلع أخيراً على حقيقة الامر في هذه التسمية ، فقال : « لعل العالم التاريخي بريستد ، هو الذي أطلق تعبير الهلال الخصيب . »(الحلقة الثانية عشرة – ص ٥٥) .

وعلى كل حال ، تبنى انطون سعادة هذه التسمية ، وثبتها في نصوص تعاليمه وشروحها :

وقـــد قال ، في شرح المبدأ الرابع من المبادىء الأساسية ما يلي : « مدلول الامة السورية يشتمل على هذا المجتمع الموحد.. القائم ببيئة واحدة ممتازة ، عرفت تاريخيـاً باسم سوريا ، وسماهـا العرب الهلال الخصيب » (تعاليم ص ١٩) .

كما انه قال في نص المبدأ الخامس ما يلي : « الوطن السوري ،

هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الامـــة السورية ، وهي ذات حدود جغرافية ... ويعبر عنهـــا بلفظ عام : « الهلال السوري الخصيب » (تعاليم ص ٢٣) .

*

ولكن ... من الغريب ، ان انطون سعـادة ، بعد ان تبنى – بهذه الصورة الصريحة – اسم « الهلال الخصيب » ، للدلالة عـلى ما أسماه هو سوريا الطبيعية – الممتدة بين البحر المتوسط وبـين جبال زاغروس ، والشاملة للعراق – ... وبعد ان ظل محتفظاً بهذه التسمية مدة سنوات وسنوات ... فاجأ قراءه في اواخر ايام نضاله بمقالة نارية ، تحت عنوان « نحن سوريون ، لا هلالخصيبون » ، حمل فيها على فكرة توحيد بلاد الهـــلال الخصيب حملة شعواء ، وتهكم بدعاة هذه الفكرة تهكما لاذعاً .

لماذا ؟ لأنه توهم ان دعاة هـذه السياسة ، أخذوا عنه فكرة « اتحاد سوريا والعراق » ، ولكنهم غمطوا حقه ، وأنكروا فضله في التفكير بذلك لأول مرة . فغضب لذلك غضبة شديدة .

ثم تذكر ان « الهلال » يعتبر في اوروبا وفي بعض البـــلاد الشرقية رمزاً للاسلام ، فتوهم ان دعاة اتحاد الهلال الخصيب ، انما مالوا لهذه الفكرة ، تحت تأثير التعصب الديني والحزبية المحمدية !

ولذلك حمل على من سماهم « الهلالخصيبون » هذه الحملة العنيفة .

*

هذا ، وارى ان انقل فيما يلي ، القسم الاساسي من هذه المقالة ، لاعطاء فكرة واضحة عن هذه الحملة وعن دوافعها :

« المسالة العظمى التي اضطر الابداع العروبي الى مواجهتها وحلها ، هي : كيف يمكننا الرجوع عن قضية القومية الوهمية الباطلة ، بدون ان نظهر اننا رجعنا ؟ وكيف نتجه نحو القومية الواقعية الحقيقية — نحو القومية السورية — بدون ان نعلن اننا اتجهنا نحوها ، وبدون ان نحتاج الى الاعتراف بصحة الحركة السورية القومية الاجتماعية التي ما فتئت تدعونا ، منذ اول نشأتها الى قوميتنا الحقيقية ؟

« هذه هي المسألة الفكرية العظمى التي اضطر العقل النايورجعي الى مواجهتها وحلها ، بما يتفق مع كبريائه وعصمته عن الغلط . فاكتشف التعريف الجغرافي الذي اطلق على شكل الارض السورية الخصبة المنحنية في قوس كبيرة فوق الصحراء العربية . ولعل العالم التاريخي بريستد هو الذي اطلق هذا التعريف الجغرافي « الهلال الخصيب » على سورية الطبيعية ، فتلقفه العروبيون ، كما يتلقف اللاعب الكرة ، لانه يحل لهم مشكلة ابتلاع بلاد تاريخية ، عريقة بشعبها وثقافتها ، فلا تعود توجد سورية امامهم ، بل هلال خصيب . والهلال محبوب النايورجعية العروبية كما ان الصليب محبوب النايورجعية التلبننية . فهل ابدع من محو بلاد وانشاء ارض هلالية خضراء تخلق لنا فيها النايورجعية من فنون القوميات ، ما لا تعلمون ؟ !

« أنتم النايورجعيون خلق الهلال الخصيب ، ولم يحتاجوا الى الحزب القومي الاجتماعي وتعاليمه في شيء . وهذا أهم شيء في العملية كلها : ان لا يقال ان قضية هذا الحزب فازت في معركة

الحق والباطل ، — معركة الواقع والوهم !

« مهما كانت عقولنا قاصرة في فن خلق الأوطـــان وإبداع القوميات ، فاننا نرى ان أصعب مشكلة ستواجه العقلية النايورجعية ، بعد عملية خلق البلاد الجديدة ، هي مشكلة النسبة القوميـــة الى الهلال الخصيب : هل تكون مركبة فيقال « هلالخصبيون » ؛ ام تكون بسيطة فيقال إما « هلاليون » او « مهلهلون » واما « خصبيون » او « متخصبون » . ولكننا نثق بمقدرة العقليـــة النايورجعية على التغلب على كل أمر عسير ، فلا يبعد ان تجد هـذه العقلية الحل في الاحتفاظ بالقومية العربية في الهلال الخصيب ، فلا يكون للقطيع البشري السائم في الهلال ما يميزه الا ما كان من « لون محلي » ، قـــد يكون الأخضر ، بالنسبة الى دلالته على الخصيب . (الحلقة الثانية عشرة — ص ٥٥) .

بعد نقل الفقرات المذكورة بحروفها ، ارى ان الفت الانظار قبل كل شيء الى الفقرات التهكمية الاخيرة : اني اعترف ان هذه العبارات التهكمية لا تخلو من قوة الاضحاك . ولكني ارى ان هناك شيئاً مضحكاً اكثر من كل ذلك ، وهو ان الشخص الذي كتب هذه العبارات التهكمية حول كلمات الهلال الخصيب ، نسي تماماً ، بانه كان قد سمى سورية الطبيعية بهذا الاسم ، حتى في نصوص تعاليمه الاساسية وشروحها .

واما عن اساس المزاعم المسرودة في هذه الفقرات ، فأقول ما يلي :

اولاً — ان الهلال لم يكن رمزاً للاسلام عند العرب في يوم من الايام ، ولم ترتبط فكرة العروبة بالهـــلال في وقت من

الاوقات . والدول العربية التي نشأت بعد الثورة العربية الحديثة، لم ترسم الهلال لا في اعلامها ولا في شعاراتها .

ولذلك نستطيع ان نجزم ونؤكد بان زعم انطون سعادة بان الساسة الذين يعنيهم في هذه المقالة ، تلقفوا تعبير « الهلال الخصيب » ، لان الهلال محبوب النايورجعية الاسلامية ، ما هو الا من الاوهام الباطلة من اساسها .

ثانياً — ان فكرة اتحاد سورية والعراق نشأت ليس قبل انتشار تعبير الهلال الخصيب في البلاد العربية فحسب ، بل قبل ميلاد الحزب الذي اسسه انطون سعادة نفسه ايضاً بمدة طويلة .

اني لن اذكر هنا المذاكرات التي جرت والمقررات التي اتخذت في هذا الصدد سنة ١٩١٩ ، غير اني سأنقل فيما يلي ، فقرة من القرار الذي اتخذه واعلنه المؤتمر السوري العام — يوم اعلان استقلال سوريا — في ٨ آذار سنة ١٩٢٠ . لم ينس المؤتمر ذكر العراق في قراره التاريخي المذكور، بل قال عنه في نفس القرار ما يلي :

« بما ان بين القطرين صلات وروابط لغوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية ، تجعل احد القطرين لا يستغني عن الآخر، فنحن نطلب استقلال القطر العراقي تماماً ، على ان يكون بين القطرين اتحاد سياسي واقتصادي . » (يوم ميسلون ص ٢٦٥)

أفليس من الغريب ان يجهل انطون سعادة ، او يتجاهل هذه الوثيقة التاريخية ، ويثور هذه الثورة الغريبة ، ويحاول هذه المحاولة الفاشلة ، لاثبات ابوته لفكرة وحدة سوريا والعراق ، واقدميته في هذا المضمار !

اللغة والارض في تكوين القومية

•

عندما تكلمت عن آراء انطون سعادة العلمية بينت الخطأ العظيم الذي كان وقع فيه ، بمغالاته في تأثير الارض والبيئة في تكوين القومية ، وباستخفافه بعامل اللغة في هذا الشأن .

فكان من الطبيعي أن تنعكس آثار هـذا الخطأ على آرائه السياسية ايضاً : وان تجره الى اخطاء كبيرة جداً .

ان الدلائل التي ذكرتها آنفاً – خلال بحثي في الآراء العلمية – تغنيني عن البرهنة على خطل آرائه السياسيـة المستندة الى تلك الاخطاء العلمية .

ومع هذا ، ارى من المفيد ان اقول كلمة عما جاء في احدى المقالات المسطورة في الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الابحاث القومية الاجتماعية حول قضية اللغات :

« النفسية والفكر ، لا قيمة لها توازي قيمة اللغة في التفكير النايورجعي العربي . فاذا فكر مفكر سوري وتأمل في الحياة ، وكتب تأملاته باللغة الصينية ، صار تفكيره صينياً قومياً ، لأنه استخدم اللغة الصينية أداة عرضية للتعبير عن فكره الجوهري وموحيات نفسه ، فالقيمة هي للغة ، وهي الرباط النايورجعي

الأول ، الذي يربط الجماهير بكائن القومية . فما ابدع هذا التفكير الذي يسميه انطون سعادة تفكيراً تقدمياً رجعياً ، اي انه يتقدم رجوعاً الى الوراء . (ص ٢٥)

ان هذه الأقوال تتضمن تشويهاً صريحاً لآراء المؤمنين بالعروبة .

لأني لا اعرف ان احداً منهم قال : « اذا فكر مفكر سوري وكتب باللغة الصينية ، صار تفكيره صينياً قومياً ، لأنه استخدم اللغة الصينية أداة عرضية للتعبير عن فكرة ». فان اللغة التي نعتبرها نحن أس الأساس في بناء القومية ، هي اللغة الأصلية ؛ لغة الأم والبيت التي ينشأ عليها ويشترك فيها جميع افراد الشعب ، لا اللغة العارضة ، التي يتعلمها ويستخدمها الانسان ، في بعض الأحيان .

والا ، لو اتبعنا طريقة التهكم والانتقاد التي أملت الكلمات الآنفة الذكر ، في تفنيد نظرية الأرض والبيئة ، لحق لنا ان نقول : « اذا ولد طفل انجليزي في دمشق — مثلاً — صار ، في نظر انطون سعادة سورياً قومياً ، لانه فتح عينيه للنور في سوريا ... »

ولكن لن اسلك هذا المسلك الذي يخالف مناحي البحث العلمي مخالفة كلية ، وسأعود الى أساس الموضوع :

نحن لم نقل أبداً « ان النفسية والفكر لا قيمة لها توازي قيمة اللغة » لاننا ، أولاً لانعتقد بجواز فصل اللغة عن النفسية والفكر . وذلك لاننا نعلم ان اللغة هي أداة التفكير ، كما انها أهم وسائل التعبير عن خلجات النفس . ثم اننا نعتقد في الوقت نفسه بان اللغة واسطة اتصال الأجيال الجديدة بالأجيال القديمة ، وواسطة انتقال المكتسبات الفكرية من جيل الى جيل . ولذلك نقول : ان وحدة

اللغـــة هي اهم وامتن الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وهي أفضل العوامل التي تؤثر في تكوين شخصيات الامم .

اننا لم نقل « ان النفسية والفكر ليس لها قيمة توازي قيمـــة اللغة » ولكننا قلنا ولا نزال نقول : « ان الأرض والبيئة ، ليس لها قيمة توازي قيمة اللغة » .

هذا هو اساس الخلاف بيننا وبين انطون سعادة .

وهل يستطيع احد أن ينكر صحة قولنا هذا ، دون ان يشوهه ، ودون ان يغالط فيه ؟

كان انطون سعادة قد تكلم باسهاب في كتابه نشوء الامم ،عن تأثير الملك والارض في تكوين شخصيات الأفراد والجمعيات .

فهل يمكن لأحد أن يدعي : ان اللغة التي ينشأ عليهـا المرء ، هي أقل اهمية من الارض التي يملكها ؟ وهل يستطيع احد ان يزعم ان الملك ألصق بشخصية الانسان من اللغة ؟

ان الارض التي يملكها الانسان قد تخرج من حوزته عن طريق البيع او الغصب او الاستملاك او المصادرة ؛ ولكن اللغـة التي ينشأ عليها ، هل يمكن ان تفارقـــه ، بسبب ما يشبه البيع او الغصب او المصادرة ؟

أفلا يحق لنا ان نستغرب كل الاستغراب : كيف يزعم سعادة ان الارض جزء من شخصية الفرد وشخصيـــة الجماعة ؛ ثم يتهم العروبيين بالرجعية أو النايورجعية ، لانهم يعتقدون ان اللغة ألصق بالشخصية والنفسية من الارض ، ومن اي شيء آخر ؟

هـــذا ، واذا نقلنا الكلام عن الارض المملوكة ، الى ارض

الوطن ، وجدنا انفسنا امام نتيجة مماثلة لما ذكرناه آنفاً تمام المماثلة: ان الفرد ، قد يغترب عن ارض الوطن ، وقد يطرد منها . ولكنه لايمكن ان يغترب عن لغته ، او يطرد منها ، فانها تنتقل معه ، في قرارة نفسه ، اينما ذهب .

ألم يكن ذلك كله ، دليلاً قاطعاً على الخطأ العظيم الذي وقع فيه انطون سعادة ، عندما قلل من شأن اللغـــة ، وانكر على العروبيين استنادهم الى اللغة .

*

هذا ، وقد كتب انطون سعادة في احدى مقالاته ما يلي :

« ان القضاء على التعصب الديني ومحو لعنة الحزبية الدينية يكون بالاتجاه الى الارض وترابط جبالها وسهولها بأنهارها ، والى الشعب بنسيجه الدموي وتفاعله اليومي في الحياة مع الارض – بادراك ان الحزبية الدينية تصرفنا عن واقع الوطن، وتشوّه حقيقة الامة».

اني اؤيد ما جاء في هذه الفقرات من وجـــوب « القضاء على التعصب الديني، ومحو لعنة الحزبية الدينية » غير اني لا استطيع ان اسلم بما جـــاء فيها ، من ان ذلك يكون بالاتجاه الى الارض والى الشعب .

لاني اعلم ان الارض ، ليس لها حدود ثابتة ؛ بـــل يمكن ان تقسم بأشكال واساليب مختلفة ، ومن البديهي ان اختيار وترجيح شكل من هذه الاشكال ، واسلوب من هذه الاساليب يفسح مجالا واسعاً للاختلاف . فالتوجه الى الارض وحده لا يكفي لجمع الكلمة والوصول الى الغاية المنشودة .

واما الشعب ، فاعتقد ان امره لا يكون اقل مثاراً للخلاف من الارض . الشعب ، ولكن اي شعب ؟ شعب القرية ، شعب الناحية ، شعب الدولة ؟ الشعب الاردني ، الشعب السوري بمعناه المعروف ،ام الشعب السوري بالمعنى الذي يقول به انطون سعادة ؟

ما الذي يكون الحكم في هـذه الامور ؟ النسيج الدموي ؟ ولكن ، من يعرفه ومن يشعر به ، ومن يستطيع ان يبت فيه ؟ وكيف يمكن الاتفاق في امره ؟ .

التفاعل اليومي في الحياة مع الارض؟ ولكن ذلك، ألاينحدر بنا الى مهواة التجزئة والتفرقة التي لا يمكن ان تقفا عند حد ؟

كلما تعمقنـــا في البحث والتفكير ، تأكدنا من انه لا سبيل يوصلنا الى الغاية المنشودة ، الا سبيل اللغة اولاً والتاريخ ثانياً .

*

وفي ختام بحث اللغة والارض ، اود ان اوجـه الانظار الى الحقائق والاسئلة التالية :

اذا نظرنا الى الامور من وجهة الاحوال الطبيعية والمناخية ، رأينا ان سوريا تشبه تونس اكثر مما تشبه العراق ، والعراق يشبه مصر ، اكثر مما يشبه سوريا .

ان انطون سعاده نفسه يربط – في جميع كتاباته – قرطاجنة بسورية . فكيف يسوغ له ان لا يعترف بوجـــود رابطة محكمة بين سوريا وتونس ؟

انه يدخل قرطاجنة والقرطاجيين في عداد المفاخر القومية السورية فبأي حق يخرج الاندلس والاندلسيين من نطاق هذه المفاخر ؟

غرور الزعامة عند انطون سعادة

من أهم ما يلفت النظر في كتابات انطون سعادة واعماله ، هو : ايمانه العميق بمبادىء حزبه ؛ ونشاطه الكبير في سبيل نشر دعوته وتنظيم حزبه ؛ واعتداده الشديد بنفسه ، اعتداداً يصل به احياناً الى درجة الزهو والحيلاء .

انه يعتبر نفسه صاحب رسالة ، وهادياً للناس ؛ ويزعم ان ظهور حزبه الى عالم الوجود سيغير مجرى التاريخ ، بل بدأ يغيّر وجه الشرق .

ان ابرز مظاهر هذه النفسية تتجلى في الخطاب الذي القاه « في اول نوفمبر ١٩٣٥ » ، والذي اعتبره « من الوثائق والتعاليم الاساسية » في الحركة السورية القومية الاجتماعية . وقد كرر سعادة قراءة هذا الخطاب خلال المحاضرة الثانية التي القاها في الندوة الثقافية ، بغية شرح تعاليم الحزب ، في « ١٨ يناير ١٩٤٨ » .

يبدأ انطون سعادة خطابه بما يلي :

« منذ الساعة التي اخذت فيها عقيدتنا القومية الاجتماعية تجمع بين الافكار والعواطف ، وتلم شمل قوات الشباب المعرضة للتفرقة بين عوامل الفوضى القومية السياسية المنتشرة في طول بيئتنا

وعرضها ، وتكوّن من هذا اللم نظاماً جديداً ، واساليب جديدة ، يستمد حياته من القومية الجديدة ، هو نظـــام الحزب القومي الاجتماعي – منذ تلك الساعة انبثق الفجر من الليـــل ، وخرجت الحركة من الجمود . وانطلقت من وراء الفوضى قوة النظـــام ، واصبحنا امة بعد ان كنا قطعاناً بشرية ، وغدونا دولة تقوم على اربع دعائم : الحرية ، الواجب ، النظام ، القوة ، التي ترمز الى اربعة أطراف الزوبعة القومية الاجتماعية ، الممثلة في عـــلم الحزب السوري القومي الاجتماعي .

منذ تلك الساعة نقضنا بالفعل حكم التاريخ ، وابتدأنا تاريخنـــا الصحيح ، تاريخ الحرية والواجب والنظام والقوة ، تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي ، تاريخ الامة السورية الحقيقي .

منذ الساعة التي عقدنا فيها القلوب والقبضات على الوقوف معـاً والسقوط معاً في سبيل تحقيق المطلب الأعـــلى المعلن في مبادىء الحزب السوري القومي الاجتماعي ، وفي غايته ، وضعنا ايدينا على المحراث ، نظرنا الى الامام ، الى المثال الاعلى ، وصرنا جماعـــة واحدة وامة حية ، تريد الحياة الحرة الجميلة – امة تحب الحياة لانها تحب الحرية ، وتحب الموت ، متى كان الموت طريقاً الى الحيـاة » (تعاليم وشروح – ص ٦٦ و٦٧) .

وبعد التوسع في وصف الاهداف قال سعادة ، في خاتمـــة الخطاب ما يلي :

« ان هذه القوة النظامية ، ستغير وجـــه التاريخ في الشرق الادنى . ولقد شاهد اجدادنا ، الفاتحين السابقين ومشوا عـــلى

بقاياهم . اما نحن فسنضع حداً للفتوحات .

تحت طبقة الثرثرة والصياح المنتشرة فوق هذه الامة ، يقوم السوريون القوميون الاجتماعيون بعملهم بهدوء واطمئنان . وتمتد روح الحزب السوري القومي الاجتماعي في جسم الامة وتنظم جماعاتها ، ولكن سيأتي يوم ، وهو قريب ، يشهد فيه العالم منظراً جديداً وحادثاً خطيراً : رجالاً متمنطقين بمناطق سوداء على لباس رصاصي تلمع فوق رؤوسهم حراب مسنونة ، يمشون وراء رايات الزوبعة الحمراء ، يحملها جبابرة من الجيش . فتزحف غابات الاسنة صفوفاً بديعة النظام ، لتكون ارادة الامة السورية لا ترد ، لأن هذا هو القضاء والقدر » (تعاليم وشروح — ص ٧٢) .

وتكمن غرور الزعامة الذي استحوذ على نفسية انطون سعادة يتجلى بوضوح اكبر ، من رسالة ارسلها من الارجنتين في ١٠ كانون الثاني سنة ١٩٤١ .

وكان مما جاء في هذه الرسالة ما نصه حرفياً :

« آمنتم بي معلماً وهادياً للامة والناس ، ومخططاً وبانياً للمجتمع الجديد ، وقائداً للقوات الجديدة الناهضة الزاحفة بالتعاليم والمثل العليا الى النصر » . (الحلقة الرابعة عشرة من سلسلة الابحاث السورية القومية الاجتماعية . ص — ٧) .

من المعلوم ان الاعتداد بالنفس ، يغذي العزم ، ويحمل على النشاط غير انه اذا وصل الى هذا الحد من الشدة ، تحول الى الزهو والخيلاء ، وأضاع على صاحبه سلامة التفكير واصابة العمل ، في كثير من الاحيان .

وأظن ان هذا ما حصل فعلاً ، في حياة انطون سعادة .

العروبـــة

في نظر الدول والأحزاب

العروبة

في ميثاق جامعة الدول العربية

•

ان الدول العربية المستقلة السبع ، قد عقدت فيمابينها ميثاقاً ، عرف باسم « ميثاق جامعة الدول العربية » .

هذه الدول السبع هي – حسب ترتيب حروف الهجاء – : المملكة الاردنية الهاشمية ، الجمهورية السورية ، المملكة العراقية ، المملكة العربية السعودية ، الجمهورية اللبنانية ، المملكة المصرية ، المملكة اليمنية المتوكلية .

واما الغاية من هذا الميثاق ، فمسطورة في ديباجته :

ان ملوك ورؤساء الدول العربية السبع ، اتفقوا على عقد الميثاق المذكور :

« تثبيتاً للعلاقات الوثيقة والروابط العديدة التي تربط بين الدول العربية ، وحرصاً على دعم هذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها ، وتوجيهاً لجهودها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ، وصلاح أحوالها ، وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة للرأي العربي العام في جميع الأقطار العربية » ..

ان توقيع الدول العربية على هذا الميثاق ، يدل على الامور التالية :

ان كل دولة من الدول المذكورة :

أولاً ، تعترف بانها دولة عربية ، وان البلاد التي تحكمها بلاد عربيـــة .

ثانياً ، تسلم بوجوب تعاون الدول العربية تعاوناً وثيقاً لتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها .

ثالثاً ، تعترف بانها تعقد هذا الميثاق استجابة للرأي العربي العام في جميع اقطارها .

رابعاً ، تعلن بان من واجب الدول العربية المستقلة ان تساعد البلاد العربية المحرومة من الاستقلال .

*

ان القضية الاخيرة موضحة في « ملحق خاص بالتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة في مجلس الجامعة » .

وينص الملحق المذكور على ما يلي :

« نظراً لأن الدول المشتركة في الجامعة ستباشر في مجلسها وفي لجانها شؤوناً يعود خيرها وأثرها على العالم العربي كله ، ولأن أماني البلاد العربية غير المشتركة في المجلس ينبغي له أن يرعاها وأن يعمل على تحقيقها .

فان الدول الموقعة على ميثاق الجامعـــة العربية يعنيها بوجه خاص أن توصي مجلس الجامعة ، عند النظر في اشراك تلك البلاد في اللجان المشار اليها في الميثاق ، بأن يذهب في التعاون معها الى

أبعد مدى مستطاع ؛ وفيما عدا ذلك ، بألا يدخر جهداً لتعرّف حاجاتها وتفهم امانيها وآمالها ، وبأن يعمل بعد ذلك على صلاح احوالها وتامين مستقبلها ، بكل ما تهيؤه الوسائل السياسية من اسباب .

*

ومما يجب ان يلاحظ ان الرابطة التي اوجدها هذا الميثاق بين الدول المشتركة فيه ، رابطة ضعيفة ، بل واهية . لأن الميثاق لم يمنح مجلس الجامعة اية سلطة تنفيذية ، كما انه لم يجعل مقرراتها ملزمة للجميع .

فان المادة السابعة من الميثاق تنص على ما يلي :

« ما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة ، وما يقرره بالاكثرية يكون ملزماً لمن يقبله » .

وذلك يعني : ان كل دولة من الدول الموقعة على الميثاق ، تستطيع ان تخالف اي قرار من القرارات التي قد يتخذها مجلس الجامعة — وان تمتنع عن تنفيذ ذلك القرار — ، ولو كان قد صدر باجماع بقية الدول الست ! .

من المؤكد ان معظم الدول العربية ، كانت ترغب في جعل جامعتها اوثق ترابطاً مما تقرر في هذا الميثاق ؛ الا" انها اضطرت الى قبول النص المذكور ، مراعاة لنزعة التحفظ والحذر التي بدت من بعض الدول العربية ؛ وأملاً في ان يعدل الميثاق فيما بعد، عندما تطمئن الدول المذكورة على سير الامور ، وتترك التحفظ والحذر .

ن أمل واضعي الميثاق في هذا الامر ، يبدو جلياً كل الجلاء، في فقرة وردت في المادة التاسعة عشرة من الميثاق :

« يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة ان يعدل هذا الميثاق ، وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها امتن واوثق .. »

اني اعتقد ان هذا النص يدل على شيء اكثر من الأمل ؛ انه يدل على امنية ورغبة ايضاً .

إلاّ ان الدول العربية ، لم تقدم الى الآن – مع الأسف الشديد – على اي عمل لتحقيق هذا الأمل وهذه الأمنية ، ولم تخطُ خطوة واحدة في سبيل تعديل الميثاق « لجعل الروابط بينها امتن وأوثق » – وذلك على الرغم من مرور ست سنوات على تاريخ وضع الميثاق .

*

هذا ، ومن اهم المواد الواردة في الميثاق . المادة التاسعة التي تنص على ما يلي :

« لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون اوثق وروابط اقوى مما نص عليه هذا الميثاق ، ان تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الاغراض » .

تدل هذه المادة على ان واضعي الميثاق لاحظوا ان جميع الدول العربية لم تكن في مرتبة واحده من الاستعداد والرغبة الى «تعاون أوثق وترابط أمتن » مما نص عليه « ميثاق جامعة الدول العربية»؛ كما انها لم تكن في درجة واحدة من الشعور بحاجة الى مثل هذا التعاون والترابط، ولذلك رأوا ان يتركوا للدول الأعضاء الحرية

الكاملة لعقد اتفاقات ثنائية ، او ثلاثية ، او رباعية فيما بينها ..

ولكن هذه المادة ايضاً بقيت الى الآن حبراً على ورق : لم تقدم دولة من الدول العربية على الاستفادة من الحرية المتروكة لها بهذه المادة ، لتمتين وتوثيق الروابط التي تربط بعضها ببعض .

بل ... حدث عكس ذلك تماماً :

قام بين سوريا ولبنان اختلاف شديد على تفهم وتقدير المصالح الاقتصادية الحقيقية . وأدى هذا الاختلاف الى الغاء « اتفاقية المصالح المشتركة » التي عقدت بين الجمهوريتين ، في بداية عهد استقلالهما ، وبدأ بذلك بين البلدين عهد « القطيعة الاقتصادية » التي تدهش العقول ، وتفتت الأكباد .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، كلما قامت « حركة اتحادية » ترمي الى توحيد قطرين من الاقطار العربية — ولو في بعض الامور الأساسية — تألبت عليها الدول الاخرى ، واخذت تعمل لاحباط مساعي الاتحاد ، وذلك بحجة الحرص على « التوازن » بين الدول العربية » .

*

سياسة التوازن بين الدول العربية ..

اني اشعر بألم شديد، ومرارة عميقة، كلما قرأت أو سمعت أمثال هذه العبارات ..

وآسف أسفاً لا حد له ، عندما اجد البعض يعارض فكرة « الوحدة او الاتحاد » معارضة شديدة ، زاعماً « انها تخل بهذا التوازن » وتؤدي بذلك الى تصدع بناء « جامعة الدول العربية ».

التوازن بين الدول العربية ، او بين كتل الدول العربية ... اني اعتبر ان مجرد التفكير في ذلك ، يخالف « روح القومية العربية » مخالفة سياسية .

ذلك لأن ، مفهوم « التوازن » في الطبيعة يتضمن – في حد ذاته – وجود « تخالف وتعاكس » بين قوتين أو بين منظومتين أو أكثر من القوى . وفكرة « التوازن » في السياسة تتضمن وجود « تنافس وتخاصم » بين دولتين أو بين كتلتين من الدول .

ولذلك ، نستطيع ان نقول: ان المعاكسة والمنافسة والمخاصمة .. لهي من العناصر التي لا تنفك عن « فكرة التوازن » .. في الطبيعة وفي السياسة .

وكل ما نعرفه من وقائع «سياسة التوازن الدولي» في التاريخ كان ناتجاً عن قيام منافسات شديدة وخصومات عنيفة بين الدول المختلفة .

فهل يجوز ان تقوم بين الدول العربية أمثال هذه الخصومات والمنافسات ، التي تستلزم إعمال الذهن لايجاد التوازن بينها ؟

ان الخصومات التي يشير اليها دعاة « التوازن » في العالم العربي، ليست – في حقيقة الامر – قائمة بين الشعوب العربية، حتى ولا بين الدول العربية ؛ انما هي قائمة بين رؤساء بعض الدول .

افلا يجب – والحالة هـذه – بذل أقصى الجهود لازالة تلك المنافسات ، عوضاً عن اتخاذها ذريعة لتوقيف حركات الاتحاد ؟

*

قد قرأت في احدى الجرائد ، تلخيصاً لآراء الفريق الذي يعارض

الاتحادات الجزئية – مراعاة للتوازن – انقلها فيما يلي بحروفها :

« يذهب هـــذا الفريق ... الى القول بان الوحدة الثنائية او الثلاثية ليست في مصلحة العرب الآن ، لانهـا ستطيح حتماً بمعالم الجامعة العربية ،فتفكك عراها . وينقسم العالم العربي الى معسكرين يتناصبان العداء السافر الصريـح ، بعد ان تناصباه ، حقبة طويلة ، من خلال الأقنعة والبراقع ، فأدى ذلك العداء المقنّع والمعروف الى تفرق العرب وضياع كلمتهم في المحافل الدولية » .

يتبين من ذلك ان رأي هذا الفريق من معارضي الاتحـــاد ، يتلخص في « استبعاد فكرة الاتحـاد بين اي قطرين من الاقطار العربية ،لـكي لا يصبـح « هذا العداء سافراً ، بعد ان كان مقنّعاً » .

فهل يعتقد هؤلاء المعارضون ، ان العداء المقنع أقـــل شراً ، واخف ضرراً من العداء السافر ؟

واما أنا ، فأعتقد عكس ذلك تماماً :

لاني أعلم العلم اليقين : ان الأمراض النفسانية والجسمانية بوجه عام – لا يمكن ان تعالج وتشفى ، طالما بقيت خفية ومقنّعة .

ولا أدري أية فائدة ننتظر من هيئة ينقسم اعضاؤهـــا الى معسكرين يتناصبان العداء من وراء الستار ؟

وأي خير يرجى من العمل لادامة هذه الحالة ، وللحيلولة دون كشف الستار عن هذا العداء المقنّع ؟

أنا أعتقد انه خير للمرء ان يسير وحده ، من ان يسير مع من يضمر له الشر والعداء ويتحين الفرص للاضرار به .

وخير للدولة أن تحارب وحدها ، من ان تتفق وتحارب مـع

دولة تعاديها سراً ، وتستعد لخيانتها في احرج الأوقات .

ولذلك كله ، أنا أعتقد : ان اول الواجبات التي تترتب على القوميين المخلصين ، هو السعي بكل جد ونشاط ، وراء ازالة هذه المنافسات من صدور الرؤساء والحكام ؛ لا العمل لتوقيف حركات الاتحاد ؛ مراعاة للتوازن الذي تقتضيه تلك المنافسات .

واما «السياسة الضيقة» التي لا تفكر في شيء غير ابقاء العداء مقنعاً ، ولا تسعى لشيء غير الحيلولة دون سفور ذلك العداء . . . فانها تشبه — في نظري — « خطة النعامة » التي يضرب بها المثل في كل اللغات .

العروبة في الدستور السوري

ان الدستور السوري الجديد الذي وضعته وقررته الجمعية التاسيسية في ٥ ايلول سنه ١٩٥٠ ، هو الدستور الوحيد الذي يصرح بوحدة الأمة العربية .

وقد صدرت الجمعية التأسيسية هذا الدستور — بمقدمة موجزة — اعلنت انها جزء متمم له —، وبدأتها بالعبارات التالية :

« نحن ممثلي الشعب السوري العربي ، المجتمعين في جمعية تأسيسية ، بارادة الله ورغبة الشعب الحرة ، نعلن اننا وضعنا هذا الدستور لتحقيق الاهداف المقدسة التالية » .

وبعد تعداد وتفصيل هذه الاهداف قالت الجمعية التأسيسية :

« ونعلن ان شعبنا الذي هو جزء من الامة العربية ، بتاريخه وحاضره ومستقبله ، يتطلع الى اليوم الذي تجتمع فيه امتنا العربية في دولة واحدة ، وسيعمل جاهداً على تحقيق هذه الامنية المقدسة ، في ظل الاستقلال والحرية » .

واما الدستور نفسه ، فقد نص على ان الشعب السوري جزء من الامة العربية ، وحتم على النواب وعلى رئيس الجمهورية، السعي وراء تحقيق الوحدة العربية .

وقد جاء في مادته الاولى ما يلي نصه :

١ – سورية جمهورية عربية ديمقراطية نيابية ذات سيادة تامة .

٢ – وهي وحدة سياسية لا تتجزأ ، ولا يجوز التخلي عن جزء من اراضيها .

٣ – والشعب السوري جزء من الامة العربية » .

وجاء في المادة السادسة والاربعين ما نصه :

« قبل ان يتولى النواب عملهم يقسم كل واحد منهم علناً امام المجلس اليمين التالية :

اقسم بالله العظيم ان اكون مخلصاً لدستور البلاد ومدافعاً عنه وعن استقلال الوطن وحريات الشعب ومصالحه واموالهو كرامته؛ وان احترم قوانين البلاد ، وان اقوم بمهمة النيابة بشرف وصدق واخلاص ، وان اعمل لتحقيق وحدة الاقطار العربية » .

وجاء في المادة الخامسة والسبعين ما نصه :

« قبل ان يمارس رئيس الجمهورية ولايته ، يحلف امام مجلس النواب اليمين التالية :

اقسم بالله العلي العظيم ان احترم دستور البلاد وقوانينهـــا ، وان اكون اميناً على حريات الشعب ومصالحه واموالهه ، وان اكون مخلصاً للنظام الجمهوري ، وان ابذل جهدي وكل ما لديّ من قوة للمحافظة على استقلال الوطن والدفاع عن سلامة ارضه ،

وان اعمل على تحقيق وحدة الاقطار العربية » .

هذا ، وقد راعى الدستور ما تقتضيه فكرة الوحدة العربية في امر الجنسية ، فنص في مادته الحادية والثلاثين على ما يلي :

« تحدد شروط الجنسية السورية بقانون . ويكون تسهيل خاص للمغتربين السوريين وابنائهم وابناء الاقطار العربية » .

يلاحظ ان الدستور السوري الجديد ، قد تبنى فكرة الوحدة العربية بصورة رسمية .

العروبة في مناهج الاحزاب السياسية

ان مناهج معظم الأحزاب السياسية القائمة في سورية والعراق ولبنان ، تحدد موقفها من العروبة ، بصراحة . وذلك إما في فصول خاصة ، تحمل عناوين خاصة ، — مثل : السياسة القومية ، او السياسة العربية — ، وإما في فصول عامة ، تتناول القضايا العامة — مثل : مبادىء الحزب ، او السياسة الخارجية .

اننا ندرج فيما يلي ، المواد المتعلقة بذلك ، مستخرجة من مناهج الأحزاب التالية :

في سورية : الحزب الوطني ، حزب الشعب ، الحزب التعاوني الاشتراكي ، الحزب الجمهوري الديمقراطي ، الحزب العربي الاشتراكي .

في العراق : حزب الاستقلال ، حزب الاتحاد الدستوري ، الحزب الوطني الديمقراطي ، حزب الامة الاشتراكي .

في لبنان : الجبهة الاشتراكية الوطنية ، الكتلة الوطنية اللبنانية ، حزب النداء القومي .

الاحزاب السورية

•

الحزب الوطني

السياسة القومية

١ ــ ان العرب في انحاء وطنهم كافة امة واحدة والسوريون جزء منها ، وسياسة الحزب تقوم على هذا الأساس .

٢ ــ ان الحزب يسعى الى تحرير سائر اجزاء الوطن العربي واستكمال سيادتها ويتضامن في هذا السبيل مع مختلف المنظمات والمراجع القومية .

٣ ــ ان الحزب يعمل على تمكين الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والتشريعية وغيرها بين اجزاء الوطن العربي توصلاً لتحقيق غاياته القومية على الوجه الصحيح .

والحزب يعتبر جامعة الدول العربية مؤسسة قومية يعلق عليها آمالا كبيرة في الاهداف القومية ويسعى لتقويتها وتعزيزها .

٤ ــ يقاوم الحزب كل نزعة او سياسة او حركة مخالفة لاماني الامة العربية ، ويعتبر الصهيونية حركة عدائية خطرة على الكيان العربي ، فيسعى بكل الوسائل لمناهضتها ، ويعمل على صيانة عروبة فلسطين وتحريرها .

حزب الشعب

السياسة القومية

العرب في مختلف ديارهم أمة واحدة ذات كيان واحد تتوفر فيه عناصر الوحدة الشاملة من روحية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

الى ان تتحقق الوحدة المنشودة يرى الحزب ان يسعى اليها بالطريقتين التاليتين :

اولاً – اقامة اتحاد دولي بين سوريا والاقطار العربية .

ثانياً – اتخاذ الجامعة العربية وسيلة الى :

أ) توحيد السياسة الخارجية في البلاد العربية وتوحيد التمثيل الخارجي .

ب) توحيد قوى الدفاع العربي في قيادته وانظمته .

ج) توحيد التشريع .

د) اعتبار بلاد دول الجامعة العربية وحدة جمركية .

هـ) اعتبار البلاد العربية وحدة اقتصادية وتوحيد المنهاج الاقتصادي .

و) توحيد مناهج التعليم .

ز) الغاء جوازات السفر بين بلاد دول الجامعة العربية .

ح) توحيد النقد العربي وتأسيس مصرف اصدار مشترك .

مساعدة الاجزاء العربية التي لم تستكمل سيادتها بعد على استكمال هذه السيادة وبذل الجهود لتحرير الأجزاء الرازحة تحت

نير الاستعمار .

مقاومة تسلل النفوذ الأجنبي في شتى اشكاله وصوره الى أي جزء من أجزاء الوطن العربي .

فلسطين بكاملها جزء لا يتجزأ من الوطن العربي وعلى سلامتها تتوقف سلامة هذا الوطن ، فيرى الحزب ان من اول واجباته مكافحة الصهيونية والوطن القومي اليهودي فيها مهما كلف الأمر من جهود وتضحيات .

السعي لتنظيم وتوجيه الرأي العام العربي نحو الأهداف العربية المشتركة ، وذلك بايجاد الاتصال بين الاحزاب السياسية العاملة على تحقيق تلك الأهداف .

الحزب التعاوني الاشتراكي

المبدا الأول :

تعمل التعاونية ـ الاشتراكية على اقامة اتحاد بين العرب والمسلمين يضم الدول المحلية الممثلة بمجالس نيابية وحكومات شعبية ، ترأسه حكومة اتحادية تعمل بارشادات مجلس اتحادي .

وينظم الاتحاد وحدة سياسية ، واقتصادية ، وتدعمه قوة عسكرية موحدة تمكنه من حماية مصالح المواطنين ، والقيام على أكمل وجه بما تفرضه مصلحته دون ان يلم به ضعف أو تخاذل تحت ضغط السياسة العالمية .

حزب البعث العربي

المبادىء الاساسية ـ وحدة الامة العربية وحريتها .

العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعي في ان تحيا في دولة واحدة وان تكون حرة في توجيه مقدراتها .

ولهذا فان حزب البعث العربي يعتبر :

١ ــ الوطن العربي وحدة سياسية اقتصادية لا تتجزأ ولا يمكن أي قطر من الاقطار العربية ان يستكمل شروط حياته منعزلاً عن الآخر .

٢ ــ الامة العربية وحدة روحية ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة بين ابنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربي .

٣ ــ الوطن العربي للعرب، ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدراته .

شخصية الامة العربية

الامة العربية تختص بمزايا متجلية في نهضاتها المتعاقبة ، وتتسم بخصب الحيوية والابداع ، وقابلية التجدد والانبعاث ، ويتناسب انبعاثها دوماً مع نمو حرية الفرد ومدى الانسجام بين تطوره وبين المصلحة القومية .

ولهذا فان حزب البعث العربي يعتبر :

١ ــ حرية الكلام والاجتماع والاعتقاد والفن مقدسة لا يمكن اية سلطة ان تنتقصها .

٢ ــ قيمة المواطنين تقدر ــ بعد منحهم فرصاً متكافئة ــ بحسب العمل الذي يقومون به في سبيل تقدم الامة العربية وازدهارها دون النظر الى اي اعتبار آخر .

رسالة الامة العربية

الامة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة في مراحل التاريخ ، وترمي الى تجديد القيم الانسانية وحفز التقدم البشري وتنمية الانسجام والتعاون بين الامم .

ولهذا فان حزب البعث العربي يعتبر :

١ – الاستعمار وكل ما يمتّ اليه عمل اجرامي يكافحه العرب بجميع الوسائل الممكنة وهم يسعون ضمن امكانياتهم المادية والمعنوية الى مساعدة جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتها .

٢ – الانسانية مجموع متضامن في مصلحته ، مشترك في قيمته وحضارته ، فالعرب يتغذون من الحضارة العالمية ويغذونها ويمدون يد الاخاء الى الامم الاخرى ويتعاونون معها على ايجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام ، والسمو في الخلق والروح .

مبادىء عامة :

... حزب (البعث العربي) حزب عربي شامل تؤسس له فروع في سائر الاقطار العربية ، وهو لا يعالج السياسة القطرية الا من وجهة نظر المصلحة العربية العليا . (المادة ١)

... مركز الحزب العام هو حالياً دمشق ويمكن ان ينقل الى أي مدينة عربية اخرى اذا اقتضت ذلك المصلحة القومية . (المادة٢)

... حزب (البعث العربي) قومي يؤمن بان القومية حقيقة حية خالدة وبان الشعور القومي الواعي الذي يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس ، حافل بالقوى الخالقة ، حافز على

التضحية ، باعث على الشعور بالمسؤولية ، عامل على توجيه انسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً .

والفكرة القومية التي يدعو اليها الحزب هي ارادة الشعب العربي ان يتحرر وان تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ ، وان يتعاون مع سائر الامم على كل ما يضمن للانسانية سيرها القويم الى الخير والرفاهية . (المادة ٣) .

... حزب (البعث العربي) اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق امكانياته وفتح عبقريته على اكمل وجه فيضمن للامة نمواً مطرداً في انتاجها المعنوي والمادي وتآخياً وثيقاً بين افرادها . (المادة ٤)

... حزب (البعث العربي) شعبي يؤمن بأن السيادة هي لملك الشعب وانه وحده مصدر كل سلطة وقيادة وان قيمة الدولة ناجمة عن انبثاقها عن ارادة الجماهير ، كما ان قدسيتها متوقفة على مدى حريتهم في اختيارها . لذلك يعتمد الحزب في اداء رسالته على الشعب ويسعى للاتصال به اتصالا وثيقاً ويعمل على رفع مستواه العقلي والاخلاقي والاقتصادي والصحي لكي يستطيع الشعور بشخصيته وممارسة حقوقه في الحياة الفردية والقومية . (المادة ٥)

... حزب « البعث العربي » انقلابي يؤمن بأن اهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن ان تتم الا عن طريق الانقلاب والنضال ، والاعتماد على التطور البطيء ، والاكتفاء بالاصلاح الجزئي السطحي يهددان هذه الاهداف بالفشل والضياع ،

لذلك فهو يقرر :

١ – النضال ضد الاستعمار الاجنبي لتحرير الوطن العربي تحريراً مطلقاً كاملا .

٢ – النضال لجمع شمل العرب كلهم في دولة مستقلة واحدة .

٣ – الانقلاب على الواقع الفاسد انقلاباً يشمل جميع مناحي الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية . « المادة ٦ » .

... الوطن العربي هو هذه البقعة من الارض التي تسكنها الامة العربية والتي تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربي وجبال الحبشة والصحراء الكبرى والمحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط . « المادة ٧ » .

... لغة الدولة الرسمية ولغة المواطنين المعترف بها في الكتابة والتعليم هي اللغة العربية ، « المادة ٨ » .

... راية الدولة العربية هي راية الثورة العربية التي انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الامة العربية وتوحيدها . « المادة ٩ » .

... العربي هو من كانت لغته العربية ، وعاش في الارض العربية او تطلع الى الحياة فيها ، وآمن بانتسابه الى الامة العربية . « المادة ١٠ » .

... يجلى عن الوطن العربي كل من دعا او انضم الى تكتل عنصري ضد العرب وكل من هاجر الى الوطن العربي لغاية استعمارية « المادة ١١ » .

... تتمتع المرأة العربية بحقوق المواطن كلها ، والحزب يناضل في سبيل رفع مستوى المرأة حتى تصبح جديرة

بتمتعها بهذه الحقوق . « المادة ١٢ » .

... تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص في التعليم والحياة الإقتصادية كي يظهر المواطنون في جميع مجالات النشاط الانساني كفاءاتهم على وجهها الحقيقي وفي حدودها القصوى . « المادة ١٣ » .

في السياسة الداخلية

... الرابطة القومية هي الرابطة الوحيدة القائمة في الدولة العربية التي تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم في بوتقة امة واحدة . وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والاقليمية . « المادة ٢ » .

... يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدولة العربية منسجم مع روح العصر الحاضر وعلى ضوء تجارب الامة العربية في ماضيها . « المادة ٥ » .

... تمنح حقوق المواطنين كاملة لكل مواطن عاش في الارض العربية وأخلص للوطن العربي وانفصل عن كل تكتل عنصري . « المادة ٧ » .

الحزب العربي الاشتراكي

- العرب امة واحدة . وعليهم ان يؤلفوا دولة واحدة ، في وطن عربي واحد . (المادة ٢ من دستور الحزب)

(أ) — مؤسسات العرب الروحية من اخلاقية وفكرية متحدة في اصولها العميقة ، وفي مختلف ادوار التاريخ .

(ب) — لغة العرب هي التي تعبر عن اصالتهم وطابعهم الذاتي

وتماسك مؤسساتهم (المادة ٣)

– تتجلى الامة العربية في رسالتها الانسانية القائمة على نشر روح التضامن والاخاء بين الامم (المادة ٤)

– الوطن العربي هو كل ارض سكنها العرب ونشروا فيها لغتهم وطبعوها بطابعهم فأصبحت ضرورية للدفاع عن كيانهم. (المادة ٥)

– يعتبر العرب جميع المناطق التي اغتصبت من اراضيهم جزءاً من الوطن العربي . (المادة ٦)

– القومية العربية ايمان عميق بعبقرية الامة العربية ومقدرتها على التجدد وعلى المساهمة في انشاء الحضارة الانسانية . (المادة ٧)

– الحزب هيئة نضالية غايتها اذكاء الشعور القومي ، حتى يؤمن كل فرد برسالة الامة العربية ، ويستعد للنضال في سبيل انشاء كيان عربي سليم . (المادة ٨)

– يستهدف الحزب ازالة الحواجز بين مختلف الطوائف الدينية والمذهبية والعنصرية والطبقية ، بهدم النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفاسدة ، ووضع نظم تتفق مع طبيعة العرب وحاجاتهم في العصر الحاضر (المادة ٩)

– الحزب هيئة شعبية تؤمن بالقوى الكامنة في الشعب العربي ، وتسعى الى ايقاظ هذه القوى وتنظيمها في سبيل الدفاع عن حق الشعب وحشدها لقلب جميع الاوضاع الفاسدة (المادة ١٠)

– السلطة العليا في الحزب مجموعة افراده التي تؤلف طليعة العرب (المادة ١٥)

– لا يجوز ان يتناول تعديل دستور الحزب نظام الحكم

الجمهوري، والمبدأ الاشتراكي والسعي وراء الوحدة العربية (المادة ٥٦)

الحزب الجمهوري الديمقراطي

ان الفصل الثاني من منهاج الحزب الجمهوري الديمقراطي، يحمل عنوان « السياسة العربية الدولية »، وينص على ما يلي :

* يعتبر الحزب القطر السوري جزءاً من الوطن العربي الأكبر ؛ ويدعو الى ان تبذل الجمهورية السورية وسعها لنصرة القضية العربية العامة . (المادة ٥) .

* يرى الحزب في جامعة الدول العربية وسيلة تساعد على توثيق الصلات القومية والسياسية والاقتصادية والثقافية بين كافة الاقطار العربية وتمهد بذلك السبيل الى الوحدة العربية الشاملة ، التي يجب ان تكون هدف العرب الأسمى .

والحزب يدعو الى تعزيز الجامعة العربية باصلاح ميثاقها ، وتوسيع صلاحياتها، وتكوين جبهة واحدة منها للدفاع (المادة ٦).

* يكافح الحزب جميع المشاريع والمعاهدات والاتفاقيات التي تتنافى مع استقلال اي دولة عربية ، وتفسح المجال للتدخل الاجنبي والنفوذ الاستعماري في بلاد العرب (المادة ٧) .

* يدعو الحزب الى اتباع سياسة خارجية قائمة على المصلحة القومية ، بالتضامن مع بقية الدول العربية . ويرى التمسك بميثاق هيئة الامم المتحدة والتعاون مع الدول التي تحترم هذا الميثاق ، على اساس المساواة والمصلحة المتقابلة ، وعدم المساس بسيادة البلاد واستقلالها (المادة ٨) .

الاحزاب العراقية

•

حزب الاستقـــلال

كيان الحزب

١ – شعبي : يؤمن بان السيادة للأمة ويعتمد في تحقيق اهدافه على منظمات شعبية شاملة ويسعى لتحقيق اكبر نفع ممكن للمجموع بضمان حد ادنى لمعيشة الفرد ومكافحة الفقر والمرض والجهل وغير ذلك من عوامل الانحلال الخلقي والاجتماعي .

٢ – تضامني : لا يؤمن بالطبقية بل يعمل على ازالة الفوارق القائمة ويعتبر الامة جماعة وافراداً جبهة واحدة لتحقيق الاهـداف الوطنيـــة .

٣ – كلي : يحرم التعصب الأقليمي والطائفي والديني ويعتبر الوطن بجميع أجزائه وحدة اجتماعية يكمل بعضه بعضاً .

٤ – ايجابي : يتعاون مع الأمم الاخرى على اساس تبـادل المصالح المشتركة ولا يخاصم الا من يحول دون تحقيق أهدافه .

٥ – تجددي تام يساير – مع التمسك بالخصائص العريقة والمثل العليا – روح العصر ويأخذ بالوسائل الحديثة ويطبق قواعد العـلم

الصحيح في اصلاح حال الأمـــة ولا سيما في النواحي الاقتصادية والاجتماعية . « المادة ٢ » .

سياسة الحزب الخارجية

سياسة الحزب في الامور الخارجية سياسة انشائية ترمي الى مـــا يأتي :

١ ـ تعزيز كيان العراق الدولي باستكمال سيادتـه والعمل على تقوية الجامعة العربية وجعلها عاملا في تكوين نظام اتحادي بين البلاد العربية ووسيلة للتعاون العالمي لخير الانسانية وصيانة السلام العام .

٢ ـ السعي لتبديل المعاهدة العراقية ـ البريطانية تبديـــلا يطمئن السيادة الوطنية .

٣ ـ العناية بالبلاد العربية كافة ولا سيما الاجزاء غير المستقلة منها وتمكينها من تقرير مصيرها وتحقيق استقلالها واتحادها مع دول الجامعة العربية .

٤ ـ ان فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ويجب ان تبقى عربية ومن اولى واجبات الحزب مكافحة الصهيونية ومقاومة الوطن القومي لليهود ومقاومة انشاء دولة يهودية فيها أو في اي قسم منها .

٥ ـ اذكاء روح الصداقة وتقوية العلائق السياسية والاقتصادية والثقافية مع الامم الاخرى ولاسيما المجاورة .

٦ ـ توثيق الصلة بين المهاجر العربي ووطنه الاول بالانصال بالجاليات العربية في المهاجر .

توثيق الروابط مع الشعوب الاسلامية خارج البلاد العربية واعتبارها قوة عظيمة يعمل الحزب على الاعتزاز بها والتعاون معها . « المادة ٣ » .

حزب الاتحاد الدستوري

غاية الحزب – تحقيق اصلاح عام يستهدف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفق منهج علمي شامل يأخذ بالتجديد النامي مع مسايرة التطور ومحاربة الطبقية والطائفية بانواعها والروح الاقليمية الانعزالية . (المادة ٢)

سياسة الحزب الخارجية – يستهدف الحزب في سياسته الخارجية تحقيق ما يلي :

١ – توثيق روابط الاخاء والتفاهم بين الدول والشعوب العربية وذلك بوضع وتشجيع المشروعات التي تستهدف تعزيز وتوسيع مختلف الصلات بين هذه الدول والشعوب وتكفل تقدمها وازدهارها وسيرها متحدة لاستعادة مجد الأمة العربية وانزالها المنزلة اللائقة بها بين امم العالم المتمدن .

ب – تبديل معاهدة التحالف العراقية – البريطانية بحيث يؤمن ذلك استقلال العراق ويصون سيادته الوطنية .

ج – مواصلة الجهاد لنصرة فلسطين وانقاذها ومكافحة الصهيونية لدرء اخطارها عن البلاد العربية .

د – تعزيز العلاقات السياسية والاقتصادية مع الامم الاخرى ولا سيما المجاورة وتوثيق الصلات الاخوية والروحية القائمة بين

العراق والبلاد الاسلامية ودعم السلم العالمي بتحقيق مبادىء ميثاق هيئة الامم المتحدة . (المادة ٣)

الحزب الوطني الديموقراطي

غاية الحزب – يعمل الحزب على تحقيق اصلاح عام في جميع نواحي حياة العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وفق تصميم علمي منسق شامل ، يستمد اسسه من المبادىء الاشتراكية الديموقراطية .

ويتوسل الحزب لتحقيق اهدافه بالوسائل الديموقراطية .

السياسة الخارجية – أ) – يعمل الحزب على تحرير العراق من كل ما ينقص من استقلاله الكامل ، وعلى اقامة العلاقات بين العراق والدول الاخرى على اساس الصداقة والمنافع المتبادلة والتساوي في الحقوق والواجبات بشكل ينسجم وميثاق الامم المتحدة .

ب) يعمل الحزب على تحقيق اتحاد البلاد العربية بدولة اتحادية (فيدرالية) .

ج) – يعمل الحزب على تحقيق استقلال البلاد العربية المحرومة من استقلالها وتحرير فلسطين بما يضمن حقوق وكيان شعبها العربي.

حزب الامة الاشتراكي

يسعى الحزب في سياسته الخارجية الى :

١ – توطيد كيان العراق الدولي ، وتعزيز استقلاله ، وجعل

علاقاته الخارجية قائمة على اسس الصداقة والمنافع المتبادلة .

٢ – تنظيم العلاقات بين العراق والدول العربية الاخرى على اساس اتحاد سياسي Fédération يشملها جميعاً ، على ان يبدأ هـذا الاتحاد بالدول التي ترغب في الانتظام فيه ، ويرى الحزب ان جامعة الدول العربية يجب ان تكون وسيلة لتحقيق هذا القصد .

٣ – العمل على تحقيق الاماني العربية في قضية فلسطين .

٤ – العمل على تحقيق استقلال البلاد العربية غير المستقلة .

٥ – اقامة احسن العلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول المجاورة .

الاحزاب اللبنانية

•

الجبهة الاشتراكية الوطنية

العلاقات العربية .

السعي لتجديد الجامعة العربية وجعل سياستها اكثر ايجابية ،ثم تدعيم العلاقات العربية في نطاق ميثاق الجامعة ، بتعزيز التعاون الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، الغاء التأشيرات ، حرية التبادل الزراعي والصناعي ، تنسيق التشريع ، تبادل البعثات الدراسية والتدريسية ، حرية انتقال المؤلفات والمنشورات .

العلاقات مع سورية

تقوم العلاقات بين لبنان وسوريا على اساس اتفاقيات تعقد بين البلدين وتضمن افضل طريقة للتعاون التام بينهما على اسس متينة في الحقلين الاقتصادي والسياسي .

الكتلة الوطنية اللبنانية

مبدأ الكتلة – اللبنانيون امة واحـــدة – ولبنان جمهورية ديموقراطية مستقلة ذات سيادة .

في السياسة الخارجية

٢ – التعاون الوثيق مع البلدان المجاورة بما لا يمس استقلال لبنان وسيادته وشخصيته .

حزب النداء القومي

مباديء الحزب واهدافه :

صيانة الاستقلال والسيادة الوطنية في لبنان .

ايضاح الفكرة العربية ونشرها في داخل البلاد اللبنانية بحيث تصبح قاعدة لسياسة الدولة .

وقد جاء بين شروط الانتماء الى الحزب : ان يكون مواطناً حسن السلوك والسمعة ، صادقاً في وطنيته ، أميناً لقوميته العربية .

الفكرة العربية في ذاتها حقيقة حية أزلية . ولكن تصور العرب لها ، وتشخصهم إياها اختلف بل يختلف حسب اجيالهم وبيئاتهم واهوائهم . واختلافهم هذا يتفاقم في اختيار الطرائق وتحديد المراحل وتعيين الأساليب التي يتخذونها للوصول الى تنفيذ تلك الفكرة . ولقد آن للعرب ان يصطلحوا على معنى لها ، واحد واضح ، استيفاء لحظ الفكرة من الحقيقة نفسها ومن العلم ومن امتهم .

وآن ان يقرروا المراحل والاساليب التي يسيرون فيها الى تحقيق هذا المعنى الواحد الواضح .

ونحن في لبنان وفي الحزب مدعوون بطبيعة الحال للمساهمة في هذه المهمة القومية المحتمة . وسنلبي النداء ، ونساهم فيها من

خلال عملنا الحزبي نظرياً وعملياً. وسنوضح ونذيع اجتهادنا ومذاهبنا في يوم موعود. غير ان الاساس في فهمنا لتلك الفكرة العربية على وجه الاجمال، ليس هو اليوم ولن يكون في المستقبل، الا انها فكرة عربية قومية تمدنية تقدمية صرف بجيدة انسانية.

نحن نقرر:

أ – لزوم وجود كيان لبناني موحد مستقل ذي سيادة وطنية قومية في حدوده الحاضرة التي تقررت نهائياً سنة ١٩٤٣.

ب – وان لبنان بلد عربي الأرومة والطابع والمقصد.

ج – وانه ضمن الحقائق القومية النهائية المطلقة، وضمن وطنية لبنانية صحيحة، وضمن اساليب حكيمة للتوفيق والتنسيق المستمرين بين ذينك الامرين المقررين الواقعين – يباشرها قوميون صادقون – لا يمكنهم ان يقوم بينهما تعارض وتناقض ولا يجوز.

ونحن افراد الحزب في نشأته، فاهمون لما نقول، ونمتاز باننا قلنا به – وهو قد استقر اخيراً نظاماً للدولة وشعبها – قبل اي جماعة اخرى.

ونحن في قولنا وفهمنا صادقون. وماضينا وحاضرنا آية.

حزب الاتحاد الجمهوري

كان في لبنان حزب يسمى «حزب الاتحاد الجمهوري». اندمج الحزب المذكور – في اواخر سنة ١٩٥٠ – مع «حزب الكتلة الوطنية اللبنانية».

أرينا من المفيد ان ندرك فيما يلي ، ما قاله رئيس الحزب ، – في الخطاب الذي ألقاه عند اعلان الاندماج – عن « القواعد التي يجب ان ترتكز عليها السياسة اللبنانية ازاء الدول العربية » . قال :

« ان مبدأ التعاون العربي لم يكن موضع جدل بيننا . لانه من الامور المقررة المفروغ منها . الا اننا وجدنا ان هذا التعاون لم يخرج حتى الآن عن الاشكال التافهة التي انحصرت في تبادل تصريحات المجاملة والود الصوري والتعاون السطحي . ويمكن القول ان هذه المظاهر والاشكال كانت في اغلب الأحيان ستاراً يخفي روحية سامة من سوء التفاهم وسوء النية . ولذلك فاننا متفقان على اسس جديدة في السياسة العربية ، يجب ان تحل مكان الاسس العتيقة . يجب ان يحل التعاون الصادق الصحيح مكان التعاون الشكلي ، وان يسود الاخلاص وصفاء النية ، العلاقات بين الدول العربية جميعاً ، على ان يظل لبنان ، من ضمن شخصيته سباقاً الى ذلك .

« ان الرسالة اللبنانية تفرض علينا الكفاح والجهاد في سبيل تركيز مبدأ التعاون العربي على اسس ثابتة ، كي يصبح هذا التعاون عنصراً فعالاً في التوازن الدولي والسلام العالمي » .

حزب الكتائب اللبنانية

ان الفصول التي نشرناها في هذا الكتاب ، رداً على مقالات جريدة العمل – التي هي لسان حال الكتائب اللبنانية – تبين

موقف الحزب المذكور من القضايا العربية ، بتفصيل واف .

ولهـــذا السبب ، لم نر لزوماً الى ذكر شيء عن ذلك في هذا المقـــام .

الأحزاب المشتركة بين سوريا ولبنان

الحزب السوري القومي الاجتماعي

تأسس في سوريا ولبنان – منـذ سنة ١٩٣٤ – حزب ، عرف اولا باسم « الحزب السوري القـــومي » ، ثم باسم « الحزب السوري القومي الاجتماعي » .

هذا الحزب ، حُلّ بقرار رسمي ، في لبنان ؛ ولكنه لا يزال قائماً في سوريا .

ان الفصول التي نشرناها في هذا الكتاب – انتقـــاداً لآراء مؤسس الحزب وزعيمه المرحوم انطون سعادة – تبين مـوقف الحزب المذكور من القضايا العربية بتفاصيل وافية .

ولهذا السبب لم نرَ لزوماً لذكر شيء عن ذلك في هذا المقام .

*

حزب عصبة العمل القومي

كان قد تنادى وتضامن جماعة من الشبان – في سوريا ولبنان – وألفوا حزباً عرف باسم « حزب عصبة العمل القومي » .

ونحن ندرج فـــيما يلي نص البيان الذي اصدرته « مفوضية الدعاية والنشر » باسم الحزب المذكور في بيروت :

« اخي الشاب العربي !

« تحية العروبة ، في هذا الظرف الدقيق الذي تجتازه الامة العربية في مختلف اقطارها ، وبعد فشل الأساليب المرتجلة تنادى نفر من الشباب القومي ، للعمل على ضوء هـذا الواقع المؤلم ، وعقدوا العزم على تحقيق الأهداف التالية :

١ – ان العرب امة واحدة ؛ والعروبة روحية تصنع اخوة يتساوى فيها العرب بالحقوق والواجبات .

٢ – الامة العربية جسم اجتماعي واحد ؛ كل عضو فيه يقوم بوظيفته التي هي وحدها مقياس افضليته .

٣ – البلدان العربية بكليتها وطن عربي واحد .

٤ – القومية العربية تنبذ كل ما عداها من العصبيات الطائفية والقبلية والاسرية والاقليمية .

٥ – الحركة العربية ، هي حركة بعث وتحرير وانشاء .

٦ – تعمل العصبة لاقامة نظام اقتصادي شامل ، يظفر فيه كل مواطن بحقه المتناسب مع عمله . وتحارب الجهل والفقر والفوضى .

٧ – تأخذ الدولة على عاتقهـا المشاريع الرئيسية الكبرى ، وتعمم التعاونية القومية .

٨ – تؤمن العصبة بالمدنية العدل ، اي المدنية الجامعة محاسن المدنيتين المادية والروحية ، وبان الامة العربية ستكون رسول هذه المدنية .

٩ – قوام النهضة الرجل والمرأة على سواء . والعصبة تعتمد في بلوغ اهدافها على التنظيم الشامل للجنسين ، وتستند فيه بالدرجة

الاولى الى الشباب .

فان آنست في نفسك العزم للعمل على تحقيق هـــذه المبادىء الجديرة ببعث الامة العربية بعثاً صاعقاً « فهيا الى صفوفنا لنؤلف الركب العربي الميمون » .

البلاد العربية منذ ظهور الاسلام

•

لقد رسمنا « الخارطة الزمانية » المطبوعة في الصفحة المقابلة ، لاظهار العلائق التاريخية التي كانت تربط مختلف الأقطار العربية في مختلف العصور ، منذ ظهور الاسلام .

يلاحظ على الخارطة تسعة خطوط شاقولية ، تقسمها إلى ثمانية اشرطة ، تمثل الأقطار العربية ، حسب الترتيب التالي : الجزيرة العربية ، العراق ، سوريا ، مصر ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، مراكش .

كما يلاحظ عليها سلسلة خطوط أفقية متقطعة يشير كل واحد منها إلى « نصف قرن » ، منذ سنة ٦٠٠ حتى ١٩٥٠ ميلادية ، ومنذ سنة ٣٠ حتى ١٣٧٠ هجرية .

نعتقد أن هذه الخارطة لا تحتاج إلى شرح وإيضاح .

ومع هذا ، نود أن نشير إلى الحقيقة التالية التي تظهر إلى العيان منذ الوهلة الأولى ، عند النظر إلى هذه الخارطة الزمنية :

أن العالم العربي لم ينقسم – في أي عهد من عهود تاريخه الطويل – بقدر ما انقسم منذ ثلث قرن ..

البلاد العربية

منذ ظهور الاسلام

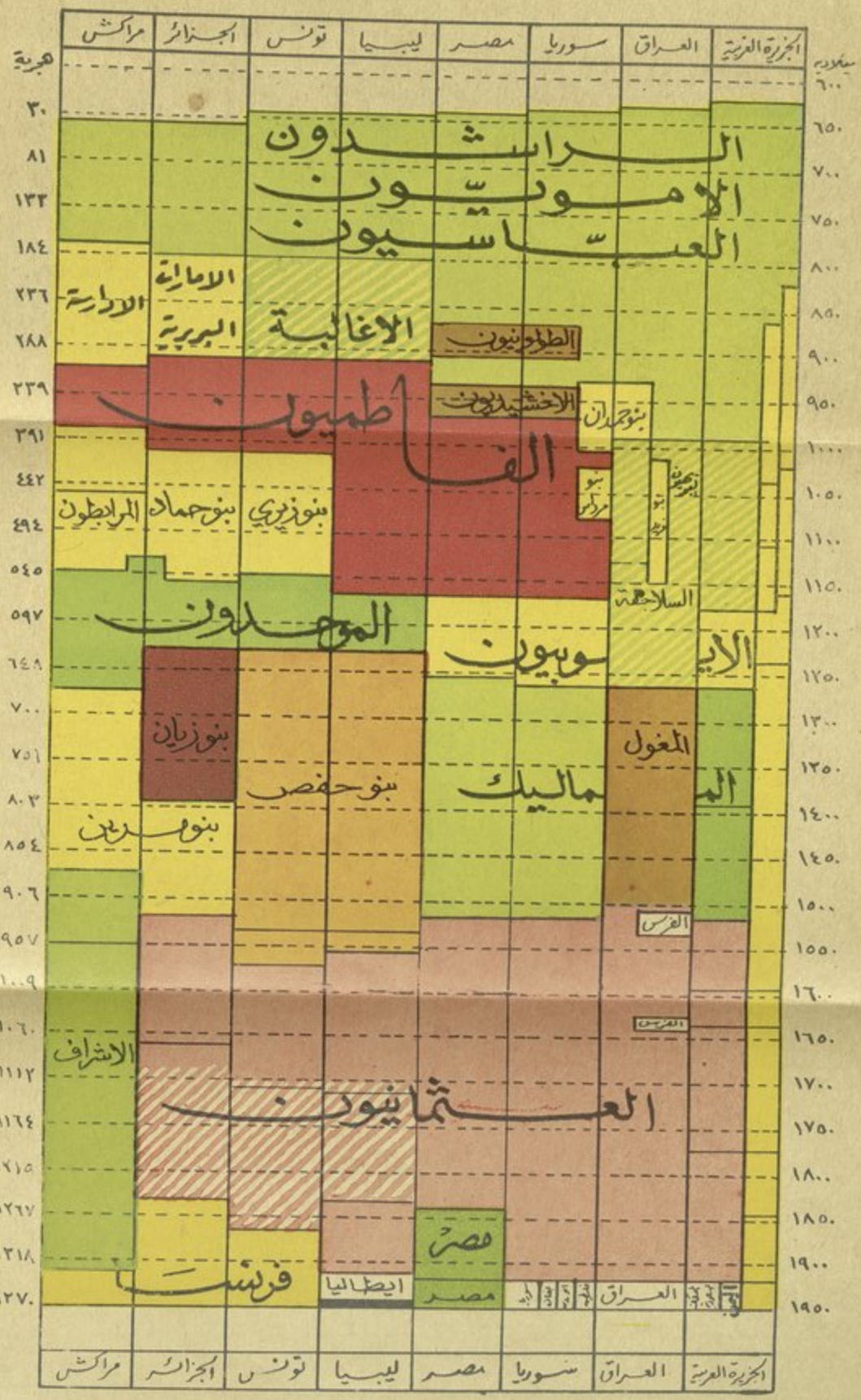

٥٢/١/١٤٧

DATE DUE

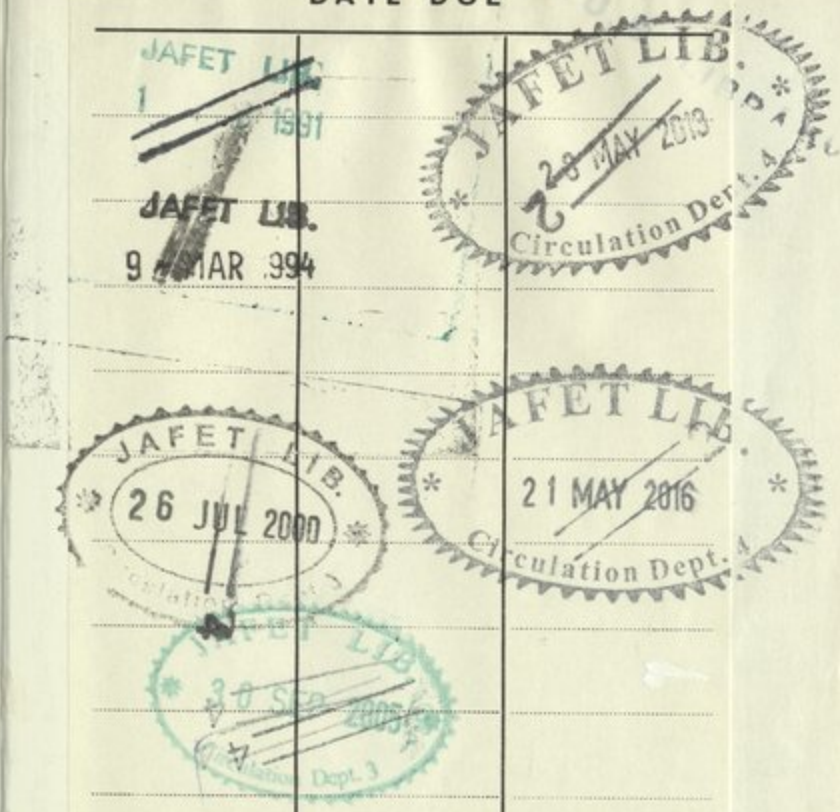
JAFET LIB.
1991
JAFET LIB.
9 MAR 994
JAFET LIB.
28 MAY 2013
Circulation Dept.
JAFET LIB.
26 JUL 2000
JAFET LIB.
21 MAY 2016
Circulation Dept.
JAFET LIB.
30 SEP 2005
Circulation Dept.

A.U.B. LIBRARY

320.15:H97uA:c.1
الحصري، ساطع
العروبة بين دعاتها ومعارضيها
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01013633

320.15
H97uA